

تحديات اللغة العربية في المجتمع الجزائري

د. / عابد بوهادي (ج .ابن خلدون -

تيارت)

توطئة

شغلني ما آل إليه وضع اللغة العربية في الوطن العربي منذ مدة بعيدة، وازداد انشغالي بالموضوع يوم أن ظهرت حلقة من برنامج إحدى المحطات الفضائية العربية كان موضوعها حول صلاحية اللغة العربية في تدريس العلوم، وكان النقاش بين أستاذين جامعيين عربيين، الأول يدعو إلى تدريس العلوم باللغة الأنكليزية وهو من جنسية سورية، والثاني يدعو إلى تعريب التعليم وهو جزائري.

وكان الأمر بالنسبة إلي شبيها بالإحساس بجرح عميق لم يندمل، أو بمرض مزمن يئس صاحبه من الشفاء وألزمه علاجا دائما يلزمه طوال حياته إذا ما أراد المحافظة على توازنه الصحي ولا يتعرض للمضاعفات الجانبية كلما حاول القيام بممارسات اعتاد عليها الأصحاء من أقرانه.

وبلغ اهتمامي بالموضوع أشده عندما عقد المجلس الأعلى للغة العربية ندوة دولية بالأوراسي يومي 25-26 فيفري 2009 حول وضع اللسان العربي في البلاد العربية، مما دفعني دون تردد إلى جمع شتات أفكار وملاحظات كنت دونتها من قبل حول معاناة اللغة العربية في الوطن العربي.

وليس يسهل على المرء التطرق إلى موضوع كهذا بالنظر إلى تشعبه وإلى ما قد يثيره من حساسية لدى بعض الأطراف من جهة، وإلى ما يتطلبه من جدية في البحث وجراحة في الطرح وموضوعية في كيفية المعالجة من جهة أخرى. ومع ذلك، عذمت على ترتيب ومراجعة ما جمعته من معلومات حول الموضوع معتمدا على ما يجود به الواقع اللغوي في البلاد العربية من مادة للبحث وما يفرزه المجتمع الجزائري بشكل خاص، في

مجال التعليم والإدارة والاقتصاد، مع الإشارة إلى خطورة الصراع الدائر بين النخب في دواليب السلطة وبين طبقات المجتمع. ذلك الصراع الظاهر الخفي الذي ما زالت تعاني اللغة العربية آثاره والذي يعكس التناقض الموجود بين التشريع النظري على المستوى الرسمي وبين الواقع المعيش الذي يفسر مظاهر تراجع اللغة العربية في شتى المجالات. قد لا يدرك الكثيرون منا مدى أهمية اللغة في حياة الشعوب كما لا يدركون أن حفظ اللغة وضمان استمراريتها يكون بقدر محافظتنا عليها كأفراد ناطقين بها. إن عدم إدراك هذا الأمر كان سببا في انقراض كثير من اللغات واللهجات في العالم، وبانقراض تلك اللغات انقرضت وتلاشت معرفتنا بشعوبها وأقوامها وثقافتها.

• الواقع اللغوي في المجتمع الجزائري

لا شك أن حفاظ اللغة العربية على مكانتها في المجتمع الجزائري مسؤولية كل ناطق بها، وكل فرد ينتسب إليها، ذلك أن التهاون في تعميمها واستخدامها هو إيدان بانقراضها وتلاشي هويتنا معها. ومن هذا المنطلق فلا يوجد فيما أعلم، لغة عانت الولايات من جراء هجمات الأعداء وعقوق الأبناء مثلما عانتها العربية بين أهلها وفي عقر دارها. ولولا خصائص المقاومة التي حباها الله بها ما تمكنت اللغة العربية من التصدي والصمود في وجه هذه الهجمات ولاندثرت، ولم تبقى لها باقية. ومما لا مرأ فيه أن موضوع اللغة العربية - وهو مثير إلى حد الاستفزاز - يتطلب تشخيص الواقع اللغوي والوقوف على أسباب تراجع اللغة العربية في مجتمعنا، وما ينبغي عمله من أجل توفير عوامل النهوض بلغة تنص كل قوانين البلاد على أنها اللغة الوطنية الرسمية للأمة.

وبالرغم من توافر الإطار القانوني، فإن اللغة العربية ما تزال بعيدة عن بلوغ هذه المنزلة، يعوزها في ذلك انعدام القدرة على تجاوز العقبات الظاهرة منها والخفية التي حالت دون استرجاع العربية مكانتها داخليا وخارجيا، فلم تتمكن من أن تخلع عن نفسها ما نسبته إليها أعداؤها ظلما وعدوانا من عجز وتخلف، وتنبؤا المنزلة اللاتقة بها، فتكون بحق لغة العلم والإدارة والتواصل والاستعمال اليومي في مختلف مجالات الحياة على تنوعها وتعددتها.

• تراجع اللغة العربية في المجتمع الجزائري

يتميز الواقع اللغوي الجزائري في هذه الأيام بتراجع فظيع للغة العربية أمام زحف الفرنسية التي اجتاحت أكثر من ميدان، وفي مقدمتها أغلب الأجهزة الإدارية على اختلافها وتتوعدنا ناهيك عن التعليم والإعلام والقطاع الاجتماعي والاقتصادي وبشكل خاص، الشركات الصناعية الخاصة منها والعمومية.

وقبل الحديث عن كيفية التعامل مع الواقع اللغوي واقتراح سبل معالجة آثاره في المجتمع، يجدر بنا ابتداءً أن نعمل على تشخيص الأسباب والنقائص التي نعاني منها على المستوى اللغوي، فالتشخيص نصف العلاج. ويرجع ذلك إلى جملة من العوامل أهمها ما يأتي:

• العوامل التاريخية

لعل أبرز الأسباب الطبيعية التي كان لها أبلغ الأثر في وضع اللسان العربي في بلادنا هو بلا ريب مخلفات الاستعمار الفرنسي الذي لم يدخر جهداً في محاولة طمس مقومات الهوية الوطنية وعلى رأسها اللغة العربية، وقد وجد قابلية ومناخاً خصباً ومهيئاً. فبالرغم من مرور ما يناهز خمسة عقود على استرجاع الجزائر سيادتها، مازالت تعاني رواسب الاستعمار في شتى المجالات. ويبدو ذلك واضحاً في هيمنة الثقافة الفرنسية في بعض الأوساط ذات النفوذ السلطوي المؤثر في شرائح عريضة من المجتمع على اختلاف قطاعاته المتعددة.

إن هذه الأسباب ولدت ظاهرة مؤسفة تمثلت في وجود فئة من الناس عرفت بحنينها إلى اللغة الفرنسية. وقد أشربوا في قلوبهم ثقافة المستعمر، فغدوا يعملون على التمكين للغة الفرنسية ومحاربة اللغة العربية، وعرقلة العمل بها، متذرعين بشتى الأعذار، مرة بالتفوق الحضاري ومرة بصعوبة العربية وعجزها عن مسايرة وتيرة التقدم العلمي وأخرى بقلّة الإطارات الكفأة باللغة الوطنية في الميادين العلمية والتكنولوجية. وهي كلها أعذار واهية لا تملك لها دليلاً في أرض الواقع.

والحقيقة أن الأمر لا يعدو أن يكون صراعاً على المناصب والسيطرة على مراكز القرار السياسي والنفوذ داخل أوساط السلطة والإدارات النافذة، المتحكمة بصلاحياتها الواسعة في تنظيم شؤون المجتمع. وبالرغم من ذلك كله، لم تستطع هذه الدوائر أن تقنع

غالبية أفراد مجتمعنا المسلم المتمسكين بدينهم وعروبته، بتلك الحجج الواهية حتى جاءت سنون العشرية السوداء فأصبح من يظهر بمظهر الإسلام أو ينتصر للغة العربية محل شبهة، قد تلصق به أي تهمة لها علاقة بالإرهاب بشكل من الأشكال. وحينذاك، توفر لهذه الفئة الغطاء السياسي المناسب والظروف الملائمة التي طالما حلموا بها، فاستغلوها أبشع استغلال للتكيد بمن يخالفهم في الفكر والرأي. عندها، تراجع المطالبون بالتعريب وأحجموا عن مطالبهم القومية الوطنية المشروعة، ووجد مناصرو لغة المستعمر الفرصة سانحة للانقضاض على دواليب السلطة وتصفية حساباتهم مع خصومهم الوهميين، والمناداة بضرورة مراجعة المناهج التربوية وعملوا على استحداث آليات إدارية تنظيمية لإحلال الفرنسية مكان العربية بعد أن اتهموها بإنتاج الإرهاب وزعموا أنها تحمل أفكارا مريبة ذات صلة بالأصولية، فأعلنوا محاربتهم لها بطريقة ممنهجة تستهدف استئصالها، لأنها أضحت في نظرهم محل شبهة، بل سبب كل الأذى، تشيد بالإرهاب وتشجع عليه وتناهض كل تنوير يأتي من الغرب

وطالت العملية كل ما له علاقة بالمبادئ الإسلامية العربية وأصولها ولم يكن الأمر غريبا ومفاجئا على ذوي الدراية والاطلاع على الأوضاع الداخلية للمجتمع، فقد كانت هذه الفئة القليلة متغلغلة، نافذة في كل دوائر السلطة ودواليب الإدارة، حيث استولوا على عصب الحياة في بعض المجالات الحساسة وكانت غالبيتهم يتمتعون بجنسية مزدوجة، توفر لهم فرنسا المأوى والحماية، بل لقد أضحت تشجعهم علانية ودون تحفظ، على الترويج للغتها وخدمة مصالحها.

وهكذا أصبح اللاتكيون الجدد وهم قلة، يخوضون حربا بالوكالة، ضد غالبية الشعب المغلوب على أمره، حيث جندوا كل الوسائل: المشروعة منها وغير المشروعة لتنفيذ خطط المستعمر القديم والقيام بالمهمة القذرة التي لم تقلح فيها يوما فرنسا نفسها عندما استهدفت مقومات الأمة العربية الإسلامية طيلة قرن وأكثر من ربع قرن من الزمن في شكل استعمار استيطاني بغيض، جريت فيه أبشع الوسائل للقضاء على مقومات الأمة الجزائرية وفي مقدمتها اللغة العربية، عدوها اللدود.

وكيف لا ؟ وقد منعت إدارة الاحتلال استعمال اللسان العربي، وجعلته أجنبيا، وأصدرت تشريعات أغلقت بمقتضاها المدارس والكتاتيب، وصرح أحد مسؤولي سلطة

الاحتلال آنذاك قائلا: «عندما تتدثر المدارس القرآنية ولا يبقى منها حتى الغبار، وعندما يعود العرب إلى بداية الإنسان على هذه الأرض فإنه يمكن تلقين هؤلاء بعض الشيء». وظن الجنرال هانوتو أن الأمة دفنت مع لسانها فقال: «إن مسألة العرب قد دفنت نهائيا. ولم يبق لهم سوى الموت أو الهجرة أو قبول خدمة أسيادهم الأقوياء»¹. وبذلوا جهودا متواصلة لتكون الفرنسية دارجة وعامة في أوساط الجزائريين، وعقدوا العزم على جعلهم فرنسيين.

وتأكد ذلك بقرار من الإدارة الفرنسية سنة 1938 يجعل العربية لغة أجنبية. وهذا قرار شوطان² وزير الداخلية الفرنسي ينص على أنه لا يجوز تعليمها بالمدارس، وإذا أراد بعض التلاميذ اختيارها فلتكن العامية لا الكلاسيكية كما سماها، وألفت كتب مدرسية بالعامية وهي خليط من العربية والأمازيغية والتركية والمالطية والفرنسية، عبارة عن كلام هجين، لا يكاد يبين، كما عملت إدارة الاحتلال على حجز ومنع دخول الصحف العربية التي تأتي من مصر وغيرها من البلاد العربية في محاولة لعزل الجزائر عن الوطن العربي وقطع الصلة به. وكان الغرض من ذلك مسح الثقافة الجزائرية الإسلامية وتحويل الذهنية الجماعية وتكوين نخبة ذليلة تخدم المستعمر وتضمن له البقاء والولاء. يؤكد ذلك ما صرح به الجنرال "ليوتي"³، قائلا: «يجب أن نتقاضي تعليم الجزائريين اللسان العربي، لأن هذا اللسان يؤدي إلى الإسلام» وهذا لعمرى، تصرف مكشوف الغاية، يهدف إلى تمزيق الوحدة الثقافية المرتبطة بالعقيدة الإسلامية، وبالعالم العربي والثقافي وضرب الإسلام العدو الخطير الذي يجب إزالته. ومما لا شك فيه أن ضرب الإسلام لا سبيل إلى تحقيقه إلا باستبعاد اللغة العربية لارتباطها به، وإذن ينبغي العمل على تغييبها من المجتمع كلية واستبدال الفرنسية بها.

من المعلوم أن تأثير اللسان الأجنبي في المجال الفكري لا يحتاج إلى توضيح، وإن كانت درجة التأثير مختلفة من بلد عربي إلى آخر. ففي هذا السياق، يذكر مالك بن نبي نموذجين⁴: النموذج المصري، والنموذج الجزائري. فبينما يظهر هذا التأثير في مصر، في المجال الجامعي (أي في النخبة)، ففي الجزائر، فإن اللغة الأجنبية وهي اللغة الفرنسية لا تقتصر على ميدان العمل الفكري فحسب، بل تصل إلى الحياة اليومية بكل حيثياتها.... مما يجعل ازدواج اللغة هاهنا ازدواجا شعبيا.

يرى **مالك بن نبي** أن ازدواج اللغة يمكنه أن يكون عامل تلاقح ثقافي، يبعث الحركة في العالم الثقافي بما يحمل من أفكار من ثقافة أخرى، فيستعيد للأفكار المطبوعة قدرتها على الكلام بعد أن كانت فقدت حوارها مع الحياة وسيطرتها عليها، وتتجه إلى إبداع الأفكار الموضوعية. وربما قام هذا الازدواج اللغوي ببعث حركة الجوانب الثقافية التي توقف فيها نبض الحياة الفكرية الفعالة.

أما في الجزائر فقد اتخذ الوضع صبغة فريدة فلم يبعث هذا الازدواج الحركة والحياة، وإنما كان شبيها بالمتفجر. فبالرغم من أنه لم يدمر كل شيء، إلا أنه أحدث شقوقا عميقة فريدة من نوعها، حيث ظهرت في المجتمع طائفتان في النخبة المتعلمة قبل الاستقلال وامتدت إلى ما بعده: نخبة تتطوق باللسان العربي، وتحاول مع الشيخ **عبد الحميد بن باديس** إحياء الصلة بالقيم الإسلامية التي خمدت، وأخرى تتطوق بالفرنسية، وتتقنع حسب تعبير **مالك بن نبي** بكل قناع من تقديمية، ووجودية، وماركسية مزيفة، وبربرية، لخدمة مصالحها بأي شعار من هذه الشعارات، وباصطناع فئة تناصر فرنسا باسم الأمازيغية، ترفع من شأن ماضيها القديم، من الذين تجنبوا بالجنسية الفرنسية أو تحولوا إلى المسيحية، ويخلطون عن قصد بين الأمازيغية والفرنكفونية.⁵ فالأولى لم يحالفها التوفيق في عقد صلة جديدة بين الروح الجزائرية والقيم الإسلامية لفقدان الصلة الحقيقية مع نماذج هذه الثقافة الحية، وهي ما يدعوها **مالك بن نبي** بالأفكار المطبوعة.

ولم تتمكن النخبة الثانية من توثيق الصلة الحية مع الحضارة الغربية لفقدان الفهم الدقيق لروح الحضارة الغربية العملية، فأدى فقدان الأفكار الصحيحة من ناحية، وفقدان الأفكار الفعالة من ناحية أخرى، إلى توقف السير، وتعطلت الحركة المبدعة. ولما اختفى الوجود الاستعماري الظاهري انكشفت آثار هذه الشقوق بوضوح، فرأينا عمق هذا التصدع الذي أحدثه ازدواج اللغة في القمة والقاعدة معا. فلم تصبح في الجزائر نخبتان فحسب وإنما "مجتمعان" متراكبان: أحدهما يمثل الوطن التقليدي التاريخي، والثاني يرغب أن يصنع وجوده وتاريخه من الصفر ويقطع صلته بكل ما هو تقليدي. ولا تستطيع أن تتعايش أفكار هذا الفريق مع أفكار الفريق الآخر في عالم ثقافي واحد، فهما يتحدثان

لغتين مختلفتين، وها هنا تأتي ألوان من الصراع الفكري الذي تغذيه عوامل داخلية وأخرى خارجية.

إن معركة التعريب في الجزائر ليست بعيدة عن مرصد الصراع الفكري وقادته، ولا يمكن أن تغيب عن متابعتهم ومراقبتهم الدقيقة لها. لقد أصبحت الحياة الثقافية الاجتماعية في الجزائر صراعا لغويا، تولد عنه لون ثقافي ذو شقين متعارضين تعارضا واضحا في أوساط النخبة، وفي أوساط القاعدة العريضة من الشرائح الاجتماعية، وفي المدن بصفة خاصة. وأخذت نتائج هذه الظاهرة صبغة فريدة لا نجدها في بلد آخر يمثل ذلك الوضع في الواقع اليومي بالجزائر.

والحقيقة أن هذا الصراع ليس وليد اليوم، فقد اتجهت سياسة فرنسا في أوائل احتلالها للجزائر أيضا إلى مصدر اللسان العربي، وأصوله في القرآن الكريم فأرادت استئصاله من هذه البلاد، ويتلخص هذا الاتجاه في موقف الكاردينال لافيغري حيث قال: «علينا أن نخلص هذا الشعب، ونحرره من قرانه، وعلينا أن نعنّى على الأقل بالأطفال لننشئهم على مبادئ غير التي شب عليها أجدادهم، فإن واجب فرنسا تعليمهم الإنجيل، أو طردهم إلى أقاصي الصحراء بعيدا عن العالم المتحضر»⁶

وأكد هذا الموقف سكرتير الجنرال بيجو بقوله: «إن آخر أيام الإسلام قد قربت، وفي خلال عشرين عاما لن يكون للجزائر إله غير المسيح، وإذا أمكننا أن نشك في أن هذه الأرض تملكها فرنسا، فلا يمكننا أن نشك، على أي حال بأنها قد ضاعت من الإسلام إلى الأبد، أما العرب فلن يكونوا رعايا لفرنسا إلا إذا أصبحوا مسيحيين جميعا»⁷

ولم يكتف بالقول بل عمد إلى تحويل المساجد إلى كنائس والمعاهد العلمية والمدارس إلى ثكنات، ودكاكين، أو مرابض للخيل، واستحوذ على أوقاف المساجد والمعاهد كما جاء في تقرير الدوق دو مال إلى حكومته⁸، فتعاونت جهات متعددة لإنجاز هذه الإبادة اللغوية: الجيش والسياسة التعليمية. والإدارة. والكنيسة.

وها هي ذي فرنسا اليوم، تجد من ينوب عنها، دون أن تكلف نفسها عناء المواجهة المباشرة. فكيف لا تستمر وتبارك ما يحدث للجزائر الجريحة التي ما تزال دماؤها تتزف ... بل لا يستبعد أن يكون لها ضلع في الأمر. ترفع شعار المساعدة بيد، وتخفي

بالأخرى نار الانتقام من شعب، لقتها يوما أكبر الدروس، وضرب لها أروع الأمثلة في التضحية والكفاح، دروسا خالدة مايزال التاريخ يرويها للأجيال.

إن المشكل اللغوي في الجزائر ينفرد بخصوصيات سوسولوجية تختلف بفعل عواملها عن المشرق وعمن يجاورنا من التونسيين والمغاربة بالرغم من الصلات التاريخية والثقافية الراسخة بيننا، ولذلك تشهد الجزائر صراعا عنيفا بين الفرانكفونية والتعريب في مستوى النخب، وفي مجال بعض الشرائح الاجتماعية. ذلك أن اللغة الفرنسية في المجتمع الجزائري تمنح للناطق بها التمتع بامتيازات طبقية، مما أدى إلى احتدام التمييز اللغوي والثقافي في مجال السياسة اللغوية التي راهنت على ربط العمل باللغة، حتى يصبح الناس يعتقدون أن الفرنسية هي اللغة الراقية التي تتيح فرص العمل والرقى الاجتماعي والاقتصادي لمن يتقنها، وأن اللغة الوطنية عائق يحول دون هذه الميزة المهمة فتهيمن الفرنسية على السوق اللغوي، وتكون عنصرا ضاغطا يعمق هيمنة النخبة الناطقة بها ويرسخ التبعية واللامساواة الاجتماعية والثقافية واللغوية.

ويجد الصراع الإيديولوجي العنيف في هذا المناخ مجالا خصبا للسياسة، يحتد فيه علانية أحيانا وخفية أحيانا أخرى، ويبرز في هذا الصراع التعلق باللغة الأم واعتزاز بعض الفئات بهذه اللغة والنضال من أجل أخذها بعين الاعتبار في التعليم وغيره من أوجه الثقافة والإعلام بالرغم ما يشعرون به من إقصاء وتهميش وهو ما يحدث في المجتمع الجزائري...

وتعتقد جماعة أخرى مفرسة أن الفرنسية هي لغة الحداثة، وأنها وسيلة سحرية في نقل البلاد من التخلف إلى التقدم، وبعض ذلك أن الناطقين بها هم المسيطرون على المناصب الرفيعة مما يدفع بالشباب إلى تعلمها رغبة في الترقى الاجتماعي والرواتب العالية والامتيازات المادية. ويأتي اتجاه آخر فينظر إلى الفرنسية بنظر المقت، فهي لغة المستعمر المدمر، حتى إن بعض التلاميذ امتنع عن دراستها في أول الاستقلال تماما مثلما كان الصينيون ينظرون إلى الإنجليزية على أنها لغة شريرة ولغة النظام الرأسمالي عدو الماركسية، ثم صار هذا الاتجاه ينظر إلى الفرنسية مكرها على أنها وسيلة

النفاذ إلى التحديث⁹

لقد أضحت الفرنسية أداة لسيطرة النخبة المتقنة لها وعنصرا طبقيا ذا قيمة اقتصادية تتولى الأعمال المهمة في المجتمع على حساب اللغة العربية، وتتاضل من أجل مصالحها والسيطرة على السلطة والقرار، وأثر ذلك في وضع السياسات اللغوية واتخاذها وسيلة للتحكم في المجتمع بوضع منظومة تربوية تحقق هذه الأهداف وتحافظ عليها.

وما تزال أزمة الإقصاء والتهميش تنال الذين يستعملون اللسان العربي ويحملون الشهادات والإجازات بهذا اللسان، فلا يقبلون في سوق العمل الذي يفتح ذراعيه للغة الفرنسية عارضا مناصب العمل عليها في هرم السلطة والإدارة وأجهزة التسيير. وما تزال سياسة الانتقاء اللغوي في هذا المجال قائمة بكل أسف...

لا يختلف اثنان في كون اللغة لها سلطتها الرمزية القوية في المجتمع الجزائري، ولكنها ما تزال محورا ملغما حاملا لأخطار من كل نوع، ينذر بحرب مأساوية تمزق النخبة الجزائرية، وتزيد الحياة الاجتماعية ارتباكاً، وتؤخر الأمل في بناء مجتمع جديد، وفي إيجاد مرجعية ثقافية متفق عليها، لتكتسب حياتنا الجماعية والفردية معنى. وقد عاد هذا الصراع¹⁰ إلى الظهور من جديد - وكلما تهيأت له الفرصة - بين النخب بالحدة نفسها أو أكثر عندما تشكلت اللجنة الوطنية لإصلاح المنظومة التربوية في 13 ماي 2000 كما سنشير إلى ذلك عند كلامنا عن النظام التربوي في الجزائر، واحتدت المناقشات بين التيارات الإيديولوجية الثلاثة المتنافسة: تيار العلمانيين ويضم كلا من الاشتراكيين والليبراليين¹¹، وتيار الإسلاميين، وثالث يشمل ما اصطلح على تسميته بتيار التوفيقيين.

وكان أن ازدادت مشكلة السياسة اللغوية والتربوية تعقيدا وحدّة، وحدثت قطيعة فاصلة بين نخبتين نخبة تدعي الأصالة وأخرى تدعي الحداثة، بين لغة الترقية الاجتماعية ولغة التهميش والإقصاء، بين طلاب الريف وطلاب المدن، هؤلاء ناطقون بالفرنسية وأولئك بالعربية، وكان الطلاب ذوو اللسان الفرنسي يتجهون إلى العلوم الطبية والعلوم الطبيعية الأخرى وإلى العمل الصناعي والإداري والتقني، ويتجه الطلاب ذوو اللسان العربي إلى العلوم الاجتماعية، والإنسانية، والحقوق، وأصبحت لغتهم لغة المرفوضين من سوق العمل بعد التخرج .

هذا بكل أسف هو واقعنا اللغوي الراهن يعيشه اليوم أبناء الوطن الواحد بكل مرارة،
بآثاره المؤلمة يتصدرها هذا التمايز اللغوي الذي بدأ ينخر المجتمع في كل قطاعاته.
والنظام التربوي الجزائري خير شاهد على ذلك لما يوفره من مؤشرات تربوية تجلت
مظاهرها في كيفية تخطيط التعليم وهيكلته وتنظيم مراحلها المختلفة وإعداد برامجها
التعليمية ومناهجه التربوية وآلياته التطبيقية.

● النظام التربوي الجزائري

● كان التعليم في البلاد العربية المحتلة يتم كله باللغات الأجنبية (الإنجليزية
في مصر والسودان والعراق والفرنسية في الجزائر والمغرب وتونس وسورية)، وكانت
خطة النفوذ اللغوي الأجنبي ترمي إلى:

● أولاً: تقديم اللغات الأجنبية في الأقطار الإسلامية على اللغة العربية.

● ثانياً: تحويل أبجدية اللغات الإقليمية إلى اللاتينية وكانت تكتب أساساً بالحروف
العربية، كما حدث في إندونيسيا وبعض بلاد إفريقية وآسية.¹²

ثالثاً: تقديم اللهجات واللغات المحلية وتشجيعها والدعوة إلى كتابة اللغة العربية بالحروف
اللاتينية.

رابعاً: ارسال بعثات الطلاب إلى الغرب لدراسة لغاته، وكان ذلك إيماناً بأن اللغة هي
الوجه الثاني

للفكر، وأن من يجيد لغة، لا بد أن يعجب بتاريخها وفكرها وبصير له انتماء من نوع
ما إلى هذه الأمة. وكانت الحملة على اللغة العربية الفصحى من خلال حجج ضعيفة
واهية منها: صعوبة اللغة وتعقيد قواعدها، ومنها التفاوت بينها وبين العامية...

هذه الأمور وغيرها شجعت على انتشار اللغة الفرنسية لتصبح وسيلة التعامل
المفضلة بين أغلب الإدارات والمواطن البسيط، ولغة التخاطب بين فئات عريضة من
أفراد الشعب، مختارين أو مكرهين.

ولما كان الموقف الإداري منحازاً إلى اللغة الفرنسية - وهذا بالطبع - على حساب
اللغة العربية،

عرفت هذه الأخيرة تراجعا فظيعا في أوساط المجتمع الجزائري بعد أن زاحمتها فيه الفرنسية والعامية ولهجات أخرى محلية، حتى عرفت بلغة المواطن من الدرجة الثانية. في ظل هذه الظروف عرف النظام التربوي الجزائري تذبذبا واضطرابا في مراحله المختلفة، أبرزها مرحلة ما بعد الاستقلال التي لم تتمكن من التخلص من الموروث الاستعماري. ثم كانت مرحلة المدرسة الأساسية، ثم مرحلة الإصلاح.

• مرحلة ما بعد الاستقلال، وتمتد من 1962 إلى 1976.

من مؤشرات هذه المرحلة أن السياسة العامة للتربية لم تستطع التحرر بين عشية وضحاها من الفلك التعليمي الفرنسي الموروث عن العهد الاستعماري القريب، وكان دعاة اللغة الفرنسية المندسون في دواليب الإدارة، يعملون بشكل خفي على عرقلة كل محاولات الإصلاح التعليمي منذ فجر الاستقلال، وذلك بتهميش كل من تلقوا تكويننا باللغة العربية والتضييق عليهم والتعالي عليهم بدعوى العصرية والتفوق الحضاري الغربي، فكان أن أفضى هذا التصرف إلى نتائج سلبية أدت إلى خلق صراع ما تزال آثاره قائمة إلى يومنا هذا، وما يزال التأرجح الفكري مهيمنا على الساحة الثقافية، مما أدى إلى عدم تحديد لغة التعليم بشكل نهائي وبصيغة واضحة، فنتج عن ذلك نشوء بلبلية تربوية تعليمية ثقافية فكرية انعكست آثارها على التعليم عموما.

وظهر صراع حاد في الندوة الوطنية للتعريب سنة 1975 حيث صرح فيها الرئيس بومدين وقتها بوجوب ربط التعريب بالتصنيع، وأن اللغة العربية لابد أن تصبح في المستقبل لغة الحديد والصلب والبيetroكيميا، واشتد النقاش بين دعاة التعريب الفوري الشامل ودعاة التعريب التدريجي العلمي التقدمي كما يزعمون، يمثلهم اللوبي الفرانكفوني¹³ وألحت الندوة في قراراتها وتوصياتها على البعد الاجتماعي لمسألة التعريب وعلى دراسة مشروع مجمع اللغة العربية والتخطيط والتنسيق وتوحيد المصطلحات المستعملة في مختلف المؤسسات والعناية بالترجمة وتعليم الكبار واستعمال الوسائل السمعية البصرية في التعليم.

ولم تكف الجهودات المبذولة لمواجهة التحديات فقد تواصلت السياسة الفرنسية اللغوية الثقافية بوسائل أخرى، منها أنها عملت على إنشاء "الأكاديمية البربرية"، وهذا

بالطبع ليس حبا في اللغة الأمازيغية ذاتها ولكن بهدف تمزيق مجتمعنا الجزائري تمزيقا لا يقتصر على استعمال اللسان فحسب، وإنما يمتد إلى العرق.

ورد في وثيقة صدرت سنة 1973 أن: "تاريخ شمال إفريقيا كما يدرس اليوم كله تزييف وتحريف، ويجب على البربر أن يتحدوا ضد جريمة نكراء اسمها العروبة"¹⁴ ولا يحتاج النص إلى تفسير، فالغرض واضح وهو نفس سياسة تمكين اللسان العربي ليتخذ مكانته في التعليم والإدارة والحياة اليومية وغيرها.

لتحقيق هذا الهدف الخبيث، لجأت السياسة الفرنسية إلى استعمال العرق، وإحياء لسان آخر لا حبا في ذاته، وإنما لينازع العربية، ويصدها عن سبيلها لتبقى الفرنسية مهيمنة في نهاية الأمر. لم يكن الأمازيغي قبل الصدمة الثقافية أو بالأحرى الإبادة اللغوية يتصور هويته الجزائرية خارج الهوية العربية الإسلامية، وكان ينظر إلى العربية نظرة تقديس، فأصبح بعضهم اليوم يعاديها، ويعادي الإسلام ذاته وإن كان هذا ضئيلا محدودا، كما أشار إلى ذلك ابن خلدون رئيس الحكومة الجزائرية المؤقتة في مذكراته¹⁵ والعنصر الرئيسي لهذه النزعة الأمازيغية تمثله بعض العناصر من النخبة التي تخرجت من المدرسة الفرنسية، وهم جماعة متعصبة لفرنسا¹⁶ لغة وثقافة، كما أشار إلى ذلك محمد حربي¹⁷ أيضا، ومن هؤلاء من ينكر ذاته ويقع في عشق الرجل الاستعماري ويتباهى بالتبعية والاندماج، ومعاداة العرب، ويدعي أن الأمازيغي ليس ساميا، وأنه أقرب إلى الشعوب اللاتينية، منه إلى العربية.

ومن آثار الأبحاث السيوسولوجية الكولونيالية والانتوغرافية أنها غرست الأسطورة الأمازيغية في السياق الانقسامى للمجتمعات المغاربية.

وهذا ما يؤكد المؤرخ الفرنسي أجرون وبين أن الاتريولوجيا الاستعمارية تصطنع العرقية، برفع شأن العرق الأمازيغي وبالخط من العرق العربي¹⁸ بطريق علمي مزيف، يقوم به ماكرون ينسبون أنفسهم إلى العلم بقصد الاحتواء الثقافي، والسياسي، والاقتصادي، ويشبه هذا من وجه ما دعاة الفرعونية في مصر في وقت ما. ويذهب الكولونيل ديما¹⁹ والنقيب فابر²⁰ إلى أن الشعب القبائلي (الأمازيغي) ورث بعض الأصول الجرمانية، وبذلك فهو إلى المسيحية أقرب منه إلى الاسلام، وأن إيمانه بالإسلام

ضعيف، وأنه يمكن اصطناع فرنسيين جدد من هؤلاء البربر²¹ واتخذت الوسائل الكفيلة بالاستيطان اللغوي، مع استيطان الأرض بإدماج السكان في ثقافة فرنسا، وأحدث هذا من التأثير في الجزائر ما لم يحدث في المغرب وتونس، وبذلك ما تزال الثقافة في بلادنا تحمل في طياتها ألغاما آخذة في التفجير شيئا فشيئا.

صحيح أن الجزائر استقلت بعد جهاد مرير، ورفرف علمها عاليا في السماء، لكن السياسة الفرنسية ظلت مستمرة وقد اتخذت أشكالا جديدة، منها إذكاء الصراع العرقي لتمزيق المجتمع لغويا وعرقيا، لتبقى السيادة للفرنسية. إذ أوحى إلى "الأكاديمية البربرية" باستعمال الحروف اللاتينية في كتابة الأمازيغية.

وبالمقابل، لما تخرجت شريحة من المجتمع من المدارس الجزائرية بعد الاستقلال تنطق باللسان العربي أصبحوا كأنهم يتامى معزولون لغويا، فلا هم بالشرقيين ولا هم بالغربيين، وسدت كل الأبواب في وجوههم، حيث أخذت مفاتيحها طائفة أمية في اللسان العربي، قد امتلأت قلوبها ضغينة وخوفا على مصالحها فأعماها التعصب وجعلها تستولي على معظم الإدارات الحكومية، تتحكم في مقاليدها، وتتجراً على احتقار العربية سرا وعلانية، وتنعت الناطقين بالعربية بالرجعية والتخلف والعاهات الذهنية. وأصبح هؤلاء المعربون حملة الشهادات العربية مبعدين عن الوظائف التي يمسك بزمامها أصحاب الفرنكفونية، في أعلى هيئات الدولة والمؤسسات التربوية، وغيرها. وهذا ما تقطن له الرئيس بومدين رحمه الله، وعبر عن الجهاز المدرسي بأنه "قنبلة موقوتة" عند إضراب الطلاب المعربين في الجامعة سنة 1975.

وما لبثت أن انفجرت هذه القنبلة في سنة 1988، وظهر هذا الفريق المهيمن على حقيقته وكشف عن التيار المعارض للتعريب والتيار الأمازيغي، والتيار الإسلامي أيضا، وادعى المعارضون أن المدرسة الأساسية مدرسة أصولية ولا بد من عودة الفرنسية إلى التعليم ...

وانقسمت المرجعية على نفسها، فوجدت نظرتان مختلفتان إلى العالم الثقافي، وكانت عاقبة ذلك تعارضا شديدا، فشلت السياسة اللغوية، وأحدث ذلك شرخا في الهوية، وتركزت الأزمة والأخذ والرد في قلب هذه المشكلة، وكشف اللوبي التعريبي عن

مواجهته الصارخة لنشر العربية، وضرورة استعمالها في مختلف مظاهر الحياة، وفي هذه الظروف نشأت جمعية الدفاع عن اللغة العربية سنة (1989) وجعلت المدرسة الجزائرية ميدان حرب سياسية.

ونشبت أيضا حرب ضروس بين نخبتين، عندما تأسست اللجنة الوطنية لإصلاح المنظومة التربوية في 13 ماي 2000، حيث دعت هذه اللجنة إلى أولوية الفرنسية لا الانجليزية لغة ثانية بدعى أنها أقرب إلى المجتمع الجزائري، وأصبحت الصحافة مجالا للصراع، ووصفت فيها المدرسة الأساسية بأنها خزان للإرهابيين، وصرح أحد أعضاء المجلس الأعلى للدولة لصحيفة فرنسية بأن المنظومة التربوية هي المسؤولة عما سمّاه تصاعد الأصولية في الجزائر، ونصّت المنظومة التربوية الجديدة على أن الفرنسية تدرس في المدرسة الابتدائية ابتداء من السنة الثانية، وأجلت الإنجليزية إلى السنة السابعة.

وكان رد الفعل إنشاء "التنسيقية الوطنية لدعم المدرسة الجزائرية" التي قدمت عريضة تدعو فيها لإجراء استفتاء شعبي وأن لا تمر هذه المنظومة بلا استفتاء، وصدر كتاب للسيد علي بن محمد وزير التربية الأسبق، معارضا لهذه المنظومة عنوانه: « المصير والهوية في المنظومة التربوية، الصراع بين الأصالة والانسلاخ في المدرسة الجزائرية »²² وحدثت مواجهات بين هذه الجماعة والذين أثرت فيهم الثقافة الأجنبية ولغتها، حيث أصبحوا يتذرعون بالمصلحة، وبأن العربية ليست قادرة على مواكبة التطور العلمي .

وأغرب من ذلك، أن جماعة من الجزائريين احتجوا أمام البرلمان الأوروبي على الدولة الجزائرية بسبب صدور قانون تعميم استعمال اللغة العربية سنة 1991. وقع هذا الاحتجاج في فترة المجلس الأعلى للدولة الانتقالي، وسعى البرلمان الأوروبي في هذا الشأن، وعبر عن انشغاله بهذا الموقف الذي وقفته الدولة الجزائرية²³.

لا شك أن ما سردناه من أحداث ووقائع تؤكد أن اللغة ليست مجرد آلة حيادية، فهي قضية ثقافية ومنظومة قيم، وذهنية وسلوك²⁴، ولذلك نجد من بين العناصر التي تخرجت باللغة الفرنسية صنفين متباينين : فهذا مالك حداد الكاتب باللسان الفرنسي يعبر عن

مأساته لجهله باللسان العربي يقول: "إنني في منفى" أما كاتب ياسين فيزعم أن اللسان الفرنسي غنيمة حرب نتخذها للتقدم العلمي والثقافي ونعنى بها. إن الفرنسية بقيت في بلادنا إلى الآن لمدة 179 سنة بما في ذلك عهد الاستقلال وهي مستعملة في الإدارة والاقتصاد والصناعة وفي التعليم العالي، فهل أحزرت الجزائر اليوم بعد هذه المدة كلها نوعا من التقدم في هذه المجالات بفعل استعمال اللغة الفرنسية؟²⁵

تعاني الجزائر اليوم في تعميم استعمال اللغة العربية تناقضا صارخا بين الدعوة النظرية والتشريع من جهة، والتطبيق من جهة أخرى. فالعربية هي اللغة الرسمية دستوريا، صدرت في سبيل تعميمها تشريعات كثيرة إلزامية، يعاقب مخالفتها، وإذا رجعت إلى الواقع وجدت سبلا تعمل لتبقى الجزائر رهينة ثقافة أخرى، وسجينة لغة أجنبية واحدة هي اللغة الفرنسية²⁶.

وأما البعد الثالث لهويتنا الثقافية وهي الأمازيغية، فقد خرج بعضهم عن حقيقتها الطبيعية واكتسبت أبعادا أخرى انحرفت بها، وأصبحت عنصر تفرقة وتشتيت وعامل اغتراب وانسلاخ²⁷ وهو أمر بقدر ما يقلق المجتمع الجزائري الموحد، يرتاح له الأعداء، إذ ليس من الصدفة أن يصرح سفير فرنسا في الجزائر سنة 2000 غداة صدور تقرير اللجنة الوطنية لإصلاح المنظومة التربوية بأن: «بلادنا مرتاحة للتعديلات التي عرفتتها المنظومة التربوية في الجزائر وخاصة ما تعلق بإعادة الاعتبار للغة الفرنسية التي أصبحت تدرس ابتداء من السنة الثانية في المدارس الابتدائية. وهو الأمر الذي ستدعمه فرنسا وتعمل على تشجيعه ماديا ومعنويا وستسعى لدعم مكانة اللغة الفرنسية في الجزائر وذلك بحكم العلاقات التاريخية التي تجمع البلدين»²⁸.

وإذا كان من الطبيعي أن يسعى الفرنسيون لنشر لغتهم، فليس يجوز لهم إطلاقا أن يكون ذلك على حساب لغتنا الرسمية، كما لا يجوز لهم أن يستعملوا وسيطا منجزا لضعاف العربية والتمكين لبقاء الفرنسية. ثم متى كان المستعمر يحب الخير للجزائر؟ ومتى كان يستعمل الوسائل الشريفة لتحقيق غايته؟ فكيف تتطلي على العقلاء من أبناء أممتنا حيل المستعمر ومكره؟ وهل نسوا تاريخهم المجيد وشهداءهم الأبرار؟ أم تراهم في غفلة من أمرهم فهم لا يتعظون.

يحضرني في هذا المقام، ما قاله الإمام عبد الحميد بن باديس يوما، محددًا موقفه الثابت من الاستعمار، يقول: «والله، لو قالت لي فرنسا قل لا إله إلا الله، ما قلتها» وفي قول الشيخ الإمام دلالة واضحة على الإمعان في الرفض لكل ما يأتي عن طريق المستعمر، وكأنه يريد أن يخبرنا بما انتهى إليه يقينا وقناعة وموقفا ثابتا من المستعمر وقد تظن ببصيرته الثاقبة إلى خداعه وخبثه ومكره. فلا غرابة أن نجد فرنسا ومن يدورون في فلكها يدبرون لإحياء الأمازيغية في الجزائر، في الوقت الذي يقاومون بضراوة على حد تعبير أستاذنا أيمن مصطفى حجازي، تعليم لغات الأقليات مثل كورسيكا في فرنسا، والباسك وكتلان في اسبانيا.

فكل دولة في الاتحاد الأوربي تعتز بلغتها فلا تدرس في المدارس ولا تذيع في أجهزة الإعلام إلا بها، ولا يعرض فيلم أمريكي في ألمانيا مثلا إلا في صورة مدبلجة، وكذلك الأمر في كوريا²⁹.

إن الهدف الحقيقي لمن يدعون إلى الفرنسية هو إبعاد الأمازيغية عن العنصرين الآخرين: العربية والإسلام، وهذه دعوة مرتبطة ارتباطا وثيقا بالفرانكفونية. لضرب وحدة المجتمع واجتثاث أصوله من جذورها، ذلك أن الأمازيغية لها حوالي عشرة فروع تفرعت عنها الأمازيغية الأصلية فأياها يمكن أن يسود ويبعث إلى الحياة ؟ إن الأمازيغ القدماء في عهد الرومان لم يستعملوا الأمازيغية لغة كتابة، فهذا أوغسطين وهذا أبوليوس وهما قد استعملوا اللغة اللاتينية ولم يتخذ ماسينيوس اللغة الأمازيغية لغة رسمية وهو الذي قاوم الرومان من أجل الاستقلال³⁰.

يرى الدكتور عمار طالبي³¹ أن هذا الاضطراب في النخبة هو الذي أدى إلى انحسار العربية وزحزحتها عن مواقعها الإستراتيجية في مختلف المجالات وزاد حضور الفرنسية توسعا وتمكنا. لم تقف اللغة العربية حائلا دون بلوغ أعلى درجات التقدم والتطور وهي التي برهنت عبر التاريخ

على تفوقها بثرائها وخصائصها الذاتية ومزايا كثيرة انفردت بها.³²

إن لغة اختارها الله عز وجل لتكون لغة كتابه العزيز "القرآن الكريم"، لا يمكنها أن تظل عاجزة. وإن كان هناك تقصير فهو في أصحابها وليس فيها. قال حافظ إبراهيم على لسان العربية.

وَسِعَتْ كِتَابَ اللَّهِ لَفْظًا وَغَايَةً *** وَمَا ضِيقُ عَنْ آيٍ بِهِ وَعِظَاتٍ
فَكَيْفَ أَضِيقُ الْيَوْمَ عَنْ وَصْفِ *** آلَةٍ وَتَنْسِيقِ أَسْمَاءٍ لِمُخْتَرَعَاتِ
أَرَى لِرِجَالِ الْعَرَبِ عِزًّا وَمِنْعَةً *** وَكَمْ عَزَّ أَقْوَامٌ بِعِزِّ لُغَاتِ
أَتَوْا أَهْلَهُمْ بِالْمُعْجَزَاتِ تَفَنُّنًا *** فَيَا لَيْتَكُمْ تَأْتُونَ بِالْكَلِمَاتِ

فهذه دولة باكستان استعملت الأردية وأصبحت دولة نووية وأثرت الأردية في اللغات الهندية، وهذه كوريا وما بلغته من شأن في التقدم التقني، وفنلندة والدانمرك كلها استعملت لغاتها.

أما في الجزائر فإن الجانب النظري والمبدأ لا غبار عليهما شعبيا ورسميا، فهذا الرئيس بومدين رحمه الله يصرح في خطبة افتتاح الندوة الوطنية الأولى للتعريب (14-17 ماي 1975)، يقول: «... يجب أن يكون واضحا بادئ ذي بدء أننا لا نجتمع اليوم لمناقشة مبدأ التعريب، فذلك أمر مفروغ منه، ولا نقاش مطلقا حول المبدأ، وببساطة، لأن الفرنسي يتكلم الفرنسية والصيني يتكلم بلغته الوطنية، والروسي يتكلم بلغته الوطنية، حتى الصهيوني الذي يحتل جزءا من أراضينا العربية تمكن من أن يعيد إلى الحياة لغة ميتة أكل عليها الدهر وشرب، من الطبيعي إذن أن نستعمل نحن اللغة العربية، ومن غير الطبيعي جدا ألا نستعمل لغتنا الوطنية، وإذا كان هناك من كانوا بالأمس ضحية أوضاع تاريخية شاذة فلا عذر اليوم لأي أحد، لأن القضية أصبحت قضية كرامة، واللغة العربية هي جزء لا يتجزأ من الشخصية الوطنية التي لن تكتمل إلا باسترجاع أحد مقوماتها الرئيسية وهي اللغة العربية. إن هنالك نقطة أخرى يجب أن تكون واضحة وهي أنه لا مجال للمقارنة أو المفاضلة بين اللغة العربية وأية لغة أخرى فرنسية كانت أو انجليزية، لأن الفرنسية كانت وستبقى مثلما بقيت في ظل الاستعمار، لغة أجنبية، لا لغة الجماهير الشعبية، وأن ما لم يتمكن المستعمر من تحقيقه بالأمس بالسلاح لن يتحقق بأي حال من الأحوال على أيدي أبناء الشهداء»³³

كانت الحكومة الجزائرية قد أصدرت قرارا جريئا قبل ذلك (سنة 1968) يفرض على كل العمال والموظفين تعلم مستوى معين من العربية، وتعريب إدارة الوظائف العامة وربط الترقية داخل المؤسسات بمعرفة اللغة العربية. أما عن تعريب مدارس التعليم العام، فقد تم تعريب السنة الأولى "ابتدائي" في العام الدراسي (1964-1965)،

بينما عربت السنة الثانية جزئيا سنة 1967-1968، والسنة الثالثة جزئيا سنة (1968-1969) حيث صارت المواد الاجتماعية تدرس باللسان العربي، والعلوم، والرياضيات بالفرنسية. ثم عربت السنتان الثالثة والرابعة تماما، وأصبحت الفرنسية مادة فقط، وذلك في الفترة ما بين (1971-1974).

• مرحلة المدرسة الأساسية، أو ما بعد 1976.

تتميز هذه المرحلة بصدور الأمر 35-76 الذي يعتبر أول نص تشريعي على هذا المستوى، يتضمن الإطار التنظيمي للتربية والتكوين في الجزائر، يضع المعالم والأسس القانونية للنظام التعليمي الجزائري ويشكل الإطار التشريعي لسياسة التربية التي تركز على مبادئ تأصيل الروح الوطنية والهوية الثقافية لدى الشعب الجزائري، وتشير إلى قيمه الروحية وتقاليد الحضارية واختياراته الأساسية، و تكرر مبادئ التعريب والديمقراطية والتوجيه العلمي والتقني مع ضمان الحق في التعليم ومجانيته والزاميته³⁴

عرفت هذه الفترة التعريب التدريجي للتعليم. حيث تنص المادة (8) من الأمر المذكور بوضوح على أن لغة التعليم هي اللغة العربية. أما المادة (9) فتفسح المجال لتعليم لغة أو لغات أجنبية على أساس منظم مخطط. " يتم تنظيم تعليم لغة أو عدة لغات أجنبية تبعا للشروط التي يحددها المرسوم". ووصفت هذه المرحلة (1976) بالمهمة، لكونها جاءت بقرار حاسم لإنشاء المدرسة الأساسية، وصدر الأمر بأن تدرس جميع المواد بالعربية فتكون لغة التعليم لجميع المستويات والتخصصات.

يستفاد من القرارات السابقة أن اختيار العربية لغة للتعليم منصوص عليه بوضوح في أممية 35-76 ولا يحتاج إلى تأويل. كما أن ذكر تعليم اللغات الأجنبية بصيغة الجمع يدل على أن الفرنسية لم تعد لها الأولوية والفضل على غيرها. وفي ذلك إشارة واضحة إلى تعزيز مكانة اللغة العربية، وتقليص لنفوذ الفرنسية، التي غدت لغة أجنبية كسائر اللغات الأجنبية الأخرى إلى جانب الانجليزية والألمانية والإسبانية والروسية وغيرها من دون تمييز، مع مراعاة الشروط التي تجعلها لا تتنافس العربية كلغة وطنية

رسمية لها منزلتها القانونية المحترمة والمضمونة. وهذا على الأقل على مستوى النصوص التنظيمية، أما الواقع الاجتماعي، فذلك أمر آخر...

استمر التعريب في التعليم الابتدائي والثانوي جزئياً، ثم كاملاً إلى سنة 1980، فشرع في تنفيذ المدرسة الأساسية، وعمت القطر الجزائري كله سنة 1989 إلى أن شمل التعريب في الثانوي والعالي جميع العلوم الاجتماعية، والإنسانية، والحقوق، وبقيت العلوم تدرس بالفرنسية في كل الجامعات ما عدا المدارس العليا الثلاثة التي تدرس فيها كل العلوم بالعربية لإعداد أساتذة التعليم الثانوي لتدريس هذه المواد وتخرجت أول دفعة في إجازة العلوم الاجتماعية في حزيران سنة 1985).³⁵ وفي هذه السنة نفسها، (1985) صدر منشور وزاري لوزير الصناعات الثقيلة ينص على تعميم استعمال اللغة العربية في كل المؤسسات والهيئات التابعة لها. ورأى بعض المعارضين أن تعريب المؤسسات الصناعية ليس سوى إيديولوجية سياسية أو عملية ديماغوجية لا صلة لها بعالم الصناعة، وبقي ذلك على الهامش بل أدت إلى نتائج عكسية، حيث أصبحت هذه المؤسسات تختبر المتقدم للعمل في مدى إتقانه للفرنسية ومن لا يعرف إلا العربية فهو من صنف الأميين في نظرهم.

من هذا المنطلق، يمكننا القول أن المدرسة الأساسية استطاعت من حيث التنظيم والتنظيم، أن تجمع كل المقومات الوطنية للأمة، كما عملت على تهيئة الظروف لإحداث نهضة حقيقية في النظام التربوي. غير أن المناوئين للغة العربية لم ينظروا إلى هذا الإصلاح بعين الرضا، فهم غير مقتنعين ولا مؤمنين به أصلاً، فلم يهدأ لهم بال، وطفقوا يبحثون عن أي وسيلة تمكنهم من إفشال المشروع. وطالما أنهم ما يزالون يستولون على مناصب إدارية ذات نفوذ وتأثير، وأن إمكانات التحكم ما تزال بأيديهم وإن لم يستطيعوا استغلالها في العلن، فقد سارعوا إلى البحث عن وسائل تخريبية أخرى من داخل النظام التربوي الجديد نفسه. وكان ذلك بإقحام وسائل وآليات تطبيقية كانت كفيلة بتحطيم العملية من أساسها.

أما إذا رجعنا إلى التعليم في ذاته مداخله ومخارجه، وإلى الكتب المدرسية والمدرسين، وطرق التدريس وأساليب والتقويم ومعاييرها، والبحث التربوي الميداني، فإننا نكشف عيوباً وخطأ لا تستقيم معها تربية ولا تعليم، ولا لغة.

فأساس المسألة اللغوية وتعليمها إنما يكمن في اكتساب اللغة واستعمالها نطقاً وكتابة وظلت المؤلفات النحوية في هذه المرحلة وماتزال تتوء بأثقال الطرق التقليدية التي لا قبل للأطفال بها، كأن النحو لا يعدو أن يكون آلية حركات في أواخر الكلم، أما أن تكون الأحكام النحوية سبيلاً لإدراك جمال اللغة وتذوق أساليبها والتفكير في معانيها ومقاصدها، وصياغة تراكيبيها، وسلامة متنها فذاك كله بعيد المنال لم تهيأ له أسبابه، فالمناهج مثقلة منفرة، والاختبارات شكلية حيث لا يضر التلميذ أن يخطئ في التعبير أو الكتابة، أو يعجز عن الفهم، وعاقبة أمره أنه لا يتمكن من اكتساب الملكة اللغوية، حتى إذا ما كلف بكتابة رسالة مودة أو تعزية أو شكوى جانب الصواب، وهتك ستر القواعد، وأبان عن عجزه وسوء تعلمه، وفساد لغته. ومن هذه الآليات أيضاً إلغاء عامل الاستحقاق كشرط للانتقال من مستوى إلى آخر ولجئوا إلى الانتقال بالنسبة المئوية دون مراعاة عامل المستوى، فكان ذلك فعلاً تخريبياً نسف البناء من أساسه، وذهب بالعملية التربوية إلى عكس ما خطط لها..

تعد مسألة إغفال عامل الاستحقاق المعول الذي ضرب المدرسة الأساسية في صميمها وأفرغها من محتواها وانعكس ذلك في جميع الميادين والقطاعات الحيوية كلها حيث صارت النسبة المئوية (أي الكوطة) هي المعمول بها بدل الاستحقاق، وأصبح التوجيه المدرسي لا يخضع لملمح التلميذ والمعايير العلمية والتربوية وألزم المدرسون بتوجيه بعض التلاميذ عشوائياً لملء الشعب التقنية والرياضية التي نفر منها التلاميذ والأولياء على حد سواء، فلم تحترم رغبة التلميذ ولا ملمحه العلمي الذي يؤهله لمواصلة الدراسة في هذه الشعبة أو تلك. فالمناقن كثرت في كل مدينة ويتعين على المشرفين ملؤها مهما كلفهم ذلك دون مراعاة قدرات التلميذ الدراسية والعلمية ولا استعداداته السيكولوجي والتربوي. فكان أن أغفلوا عامل الاستحقاق واعتمدوا على النسبة المئوية في انتقال التلاميذ وتوجيههم.

إن انتقال التلاميذ من قسم إلى آخر دون مستوى علمي حقيقي يؤهلهم لمواصلة التكوين في القسم الأعلى أمر يهز أركان عملية التعليم برمتها ويجعلنا أمام نوع من التلاميذ لا يتوفرون على مؤشرات تربوية تعكس بصدق الكفاءة المطلوبة في هذه المرحلة أو تلك، ويسمح في الوقت ذاته بتقويم موضوعي لما تبذله الدولة من نفقات والمعلمون من جهد متواصل لإنجاح المشروع التربوي الوطني.

وبسبب انعدام التخطيط وتعتمد العمل المرتجل، غابت الكفاءة العلمية وضاعت النوعية وعم التسبب. ومن بين النتائج السلبية المسجلة في الأقسام الأدبية مثلا، أن الطالب يتخرج من الثانوي إلى العالي وهو خال من محصول يؤهله بما فيه الكفاية للدرس الجامعي لفقدانه الممارسة الصحيحة في استعمال اللغة، والتعبير بها تعبيرا تتبين فيه الصلة بين القوانين النحوية، وصيغ الكلام السليمة، فأستاذ الأدب يتساهل مع طلابه في أخطائهم الفادحة ظانا أن هذا من شأن أستاذ النحو وحده، كما أن مدرس اللغة لا يعنى بالجانب الأدبي، وجمال الأسلوب، وتعليم الذوق، وربما استعمل العامية.

كما أن طرقنا التعليمية لم تبين على المعطيات العلمية التي أثبتت نجاعتها في ميدان علم النفس والتربية، ووسائل الإقحام المعاصرة، وعلم النفس اللغوي والتربوي والاجتماعي، واللسانيات توظيفا وأداء، بل ظلت رهينة المناهج التقليدية القديمة التي تجاوزها البحث التربوي المعاصر وبقيت تلوث اللغة بالهجين من القول والركيك من الأساليب، وربما تخرج الطالب من الجامعة وهو لا يحسن أن يحرر خطابا على وجهه السليم، أو يصبح مدرسا بالجامعة، فيكون كارثة على الطلاب وعلى المعرفة.

وإذا بحثت عن الأسباب فإن المحيط جزء منها مؤثر بما فيه من ازدواجية وخط، وما إلى ذلك من تعدد اللغات في الوسط الاجتماعي والإعلامي، ويشكل ذلك عائقا يمنع من التحكم في اللغة العربية. والأمر المحير في بلادنا أن سوء التحكم في اللغة يؤدي بالكثير إلى اختيار الفرنسية وسيلة للاتصال، على عكس المشاركة الذين لا تلاحظ ذلك عندهم.

فأنت إذا سمعت المذيع عندهم يخاطب الناس في وسائل الإعلام، فإنه لا يرطن بالإنجليزية، فضلا عن إجادة العربية. في حين إذا سمعت طبيبا جزائريا تجده في الغالب

يخلط كلامه باصطلاحات وورطانة لا يفهمها عامة الناس مما أدى بالرئيس بوتفليقة يوما في إحدى خطبه إلى استنكار لغة التواصل بين الجزائريين حيث قال وقد استبد به الغضب، أنه لم يستطع أن يتبين أي لغة يتحدث بها الجزائريون، فلا هي عربية ولا فرنسية ولا أمازيغية فهي عبارة عن خليط من ذلك كله، كلام هجين لا تكاد تفهمه. وضرب لذلك مثلا بكلمة « ما يكريزتيش » (بمعنى لا يوجد)، وهي كلمة لا يفهمها إلا جزائري القرن الواحد والعشرين فقط.

ومهما تكن الأسباب والمبررات التي دفعت بالمشرفين إلى انتهاج هذا السلوك، فإن السماح بانتقال التلاميذ اعتمادا على النسبة المئوية فقط دون مراعاة عامل الاستحقاق تظل نقطة سوداء في سجل التخطيط التربوي الجزائري، إن لم نقل وصمة عار في جبين النظام التربوي كله، بالرغم مما سجله من إنجازات...

وبالرغم من هذه الآليات والإجراءات التي لا تمت إلى التربية بصلة، فإن تعريب المدرسة الأساسية كان من أولويات السلطة السياسية ومقاصدها الأولى، ولما عريت، تسلط عليها النقد والتجريح من كل مكان، حيث أرجعوا سوء الأداء إلى عملية التعريب. مع أنه من المعلوم أن المدرسة الأساسية مستوردة في شكلها على نمط المدرسة الألمانية المتطورة بما توافر لها من شروط الكمال، ولكن فقدت شروطها المادية والمعنوية والبشرية عندنا، وسادها نوع من الضعف في الجانب البشري والتربوي، فهي لا يشتمل كل قسم فيها إلا على 16 تلميذا في أصلها، في حين يتجاوز القسم الواحد العادي عندنا 40 تلميذا...

يغفل هؤلاء النقاد هذا الجانب وجوانب أخرى لا تقل أهمية ولا تأثيرا، ويتهمون التعريب بأنه هو سبب كل بلاء، وقامت الدعوة الصارخة إلى تيسير النحو واستعمال اللغة الوظيفية، والألفاظ المعاصرة، وما إلى ذلك مما كلف مجمع اللغة العربية بمصر بإنجازه مثل كتاب الألفاظ والأساليب بأجزائه الثلاثة، وكتاب أصول اللغة، واعتماد مجموع القرارات العلمية في خمسين عاما (1934-1984).

يرى بعض المربين أن المشكلة ليست في النحو، وإنما في طريق التبليغ والتدريس العقيم بلا مراعاة للممارسة خلال نصوص جيّدة، تعلم الذوق وتكسب الأسلوب، فبالممارسة تكتسب العادات اللغوية القيّمة كتابة وتعبيرا، ويتم هذا بتحسين مستوى

المدرسين، وإعادة النظر في الرصيد اللغوي في الكتاب المدرسي، وإعادة النظر في المناهج، وتخفيفها، والعناية بالتعبير، وتنمية الذوق.

وإذا تأملت منظومتنا التربوية، وسبل تطبيقها ألفتها لا تُعد الإنسان الجزائري القادر على التعبير عن نفسه، وعلى التواصل فضلا عن التعمق الفكري والإبداع، وتجد الطالب في اختبارات امتحان البكالوريا يميل إلى اختيار النصوص، ولا يختار المقال أو الموضوع الأدبي العام، ومعنى هذا فقدان التقويم المحكم...

والطريقة الشكلية في دراسة الأدب لا يعنى فيها إلا بالمفردات والمعنى الإجمالي، ويهمل الجانب الجمالي وقيمه، لذلك دعا بعض المربين واللغويين عندنا إلى الاستفادة من تعليمية اللغات³⁶، والعناية بالأصوات في المستوى الأول من الدراسة بإبراز الجوانب الصوتية في القراءة ليتدرب الجهاز العضوي الفيزيولوجي على إخراج الحروف من مخارجها، وهذا يتطلب أن يتقن المدرس الأصوات، وأن ينقلها للتلميذ، ويتمكن مع ذلك من تحليل الظواهر التركيبية من اللسان، وهذا ما يحقق وظيفة اللغة في التواصل والإبلاغ، وإدراك دلالات التعابير وأغراضها، ولذلك فإن العناية بالقراءة أمر في غاية الأهمية لأن ذلك يمهد لإدراك دلالة التراكيب في الصيغ الإفرادية والتركيبية والسياقية.

• مرحلة الإصلاح

يعتبر الموسم الدراسي 2003/2004 بداية تطبيق برنامج إصلاح المنظومة التربوية الذي يعتمد أساسا على منهاج المقاربة بالكفاءات. ومضي سبع سنوات على تطبيقه لا يكفي لأعطاء تقييم علمي وموضوعي دقيق للعملية، غير أن بعض المؤشرات الميدانية يمكنها أن توحى بمدى نجاعة المشروع. فأراء المعلمين والأساتذة وهم رجال الميدان الحقيقيون في مختلف مراحل التعليم هي الأولى والأقرب إلى الموضوعية من أي انطباع آخر يفتقد إلى التجربة والدليل كبرهان على صحة التحليل ونتائجه.

ومن هذا المنطلق، فإن أكثرية المربين متذمرون من وجود عيوب في برنامج الإصلاح أو على الأقل في كيفية تطبيقه. ويمكن أن نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ما يأتي:

• ملاحظة نوع من الارتجال والتسرع في كيفية التطبيق. ويستدل على ذلك ببرمجة اللغة الأجنبية في السنة الثانية ابتدائي ثم التراجع عنها في الموسم الموالي. ومنها أيضا طبع أطنان من الكتب المدرسية بمضامين مختلفة لم تخضع لا للدراسة ولا للمعايير التربوية ومدى ملاءمتها مع القيم الوطنية، ثم التراجع عن بعضها كذلك. ومنها أيضا كثرة الأخطاء في المضامين والنصوص المختارة (حذف مقطع كامل من النشيد الوطني ثم استدراكه بعد أن أثار ضجة ساخطة في أوساط الأولياء قبل المعلمين وموظفي القطاع).

• الشروع في تطبيق برنامج الإصلاح في كل مراحل التعليم دفعة واحدة دون مراعاة التدرج التسلسلي في تنفيذ البرامج، مما اضطر المشرفين إلى اللجوء إلى الاستدراك و"عتبة الدروس" وغيرها من العمليات "الترقيعية" (تحديد مجموعة من الدروس، وحذف بعضها، وإلغاء الوضعية الإدماجية كلية من الامتحان)³⁷ التي لم يكن بمقدورها تعويض الحلقات المفقودة في برنامج المرحلتين المتوسطة والثانوية.

فإذا كان الأمر طبيعيا في المرحلة الابتدائية (الابتداء من السنة الأولى ابتدائي)، فهو غير ذلك في المرحلتين المتوسطة والثانوية بدليل أن تلاميذ هاتين المرحلتين وقعوا في حيرة من أمرهم مع أساتذتهم، لأنهم لم يهيئوا للبرنامج الجديد الذي طبق عليهم بعد سنوات من دراسة البرنامج القديم. فكيف نقيم نتائج تلاميذ على أساس برنامج إصلاحي جديد لم يدرسوه أصلا.

• التشكيك في النتائج المتحصل عليها في الامتحانات المرحلية الرسمية³⁸. بسبب انتشار ظاهرة الأخطاء في نص سؤال الامتحان ثم التعويض عنها بمنح جميع التلاميذ أربعة نقاط أو أكثر بدون استحقاق؟... أو اللجوء إلى إعطاء أسئلة مكشوفة حتى نضمن الإجابة الصحيحة لأكثر عدد ممكن من التلاميذ إن لم تكن أغلبيتهم.

• تنظيم الامتحانات الاستدراكية في كل مراحل التعليم لإلحاق الراسبين بالناجحين مهما تدنى مستواهم وهي في نظر الكثير من المربين عملية غير مدروسة، أنشئت خصيصا بشكلها الحالي من أجل السماح لكل المترشحين بالانتقال دون تمييز³⁹. الأمر الذي يسلب عملية التقويم مصداقيتها. وفي ذلك ما ينمي فكرة التواكل ويثبط العزائم وبميع الاستحقاق ويقتل في التلاميذ روح التنافس الطبيعي السليم، وعندها يغيب معيار العدالة

وتكافؤ الفرص وبالتالي يستبعد الحافز الوحيد الذي يبعث على الاجتهاد والمثابرة والتفوق العلمي الصحيح.

• • القفز على الواقع والاهتمام بالشكليات دون النظر إلى الجوهر والمضمون مما جلب استياء واضحا لدى الأولياء والمربين على حد سواء.

هذه الإجراءات وغيرها جعلت الشكوك تحوم حول إيجابية النتائج إلى حد الطعن في مصداقيتها. أما بالنسبة لاختزال مدة المرحلة الابتدائية، فإن المعلمين مجمعون كلهم على أن مستوى تلاميذ السنوات السادسة أحسن بكثير من مستوى تلاميذ السنوات الخامسة "إصلاح". لأنهم أقدر استيعابا للمفاهيم الجديدة وأوسعهم إدراكا واستعدادا للتلقي.

ولما سمح بإنشاء المدارس الخاصة فتحت الأبواب على مصراعيها للغات الأجنبية، وخاصة الفرنسية، فأخذ بعضها لا يعلم إلا بالفرنسية، وتعددت وكثرت في البلاد إلى أن اضطرت وزارة التربية إلى إلزام هذه المدارس باتخاذ العربية لغة للتدريس وتطبيق البرامج الرسمية والخضوع للمراقبة التربوية ؟.

أما التعليم العالي فهو قلعة محصنة لا تنفذ إليها العربية بحال إلى يومنا هذا، ومعظم المشرفين على التعليم العالي من أساتذة وإداريين لم يتخلصوا من هيمنة اللغة الفرنسية، وسجنوا فيها إلى الأبد فيما يبدو، ويقف التعليم العالي في وجه العربية. وبهذا تصبح نصوص اللغة المالطية أصفى من نصوص العربية الجزائرية كما قال الأستاذ عبد المجيد مزيان - رحمه الله - وزير الثقافة سابقا: « إن المدرسة بأوضاعها الحالية لا تمكن المتعلم من الأداء الجيد، ولا التأثير في المحيط، بل هو فريسة للمحيط لا يكاد ينجو من تأثيره السيئ، فالمسألة لا تتحملها المدرسة وحدها، فالمجتمع له مسؤولية لا مراء فيها، ومن أكثر العيوب انتشارا في المدارس العناية بالحفظ لا بالتوظيف، وبالشكل لا بالمضمون، ولا يميز المدرسون بين اللغة وعلم تعليم اللغة. فالاستعمال اللغوي يتضمن لغة ومهارة في استعمالها، معرفة نظرية وممارسة، لذلك يتعين تعليم اللغة والنحو من خلال النصوص والشواهد، ولا تؤخذ المعلومات منفصلة مجزأة، لأن اللغة نظام معرفي ذو أنظمة فرعية متكاملة، فلا تكفي مجرد المعرفة بل لابد من الممارسة

التي تكسب وحدها المهارة، فتكون اللغة أداة لبناء الفكر، ورقة الوجدان، والذوق الجمالي، وتنمية القيم في النفوس»⁴⁰.

وأضاف قائلا: « والواقع العملي في المدارس يشير إلى البعد بين الجانب النظري في التوجيهات التربوية في وثائق التعليم من جانب، والطرائق التي تمارس فعليا، وهذا ما جعل النتائج تتسم بالضعف الواضح، ولغة المدرس بعيدة عن النموذج الذي يقتدى به، إذ أنه لا يفرق بين النحو الأكاديمي والنحو المدرسي الوظيفي، وأن أحكام النحو وقوانينه مجردة، يُعنى التدريس بحشو الأذهان بالقواعد الجامدة لا يتجاوز ذلك، ولا يقوم التقويم إلا على الاستظهار، ولذلك صرح وزير سابق للتربية بأن: "منظومتنا التربوية تشهد نوعا من التقهقر، وأن واقع التعليم تعليم اللغة العربية وآدابها، ونصوصها، وفكرها، وثقافتها في المدرسة الجزائرية، وفي الجامعة واقع سيء للغاية واقع محزن وهذه هي الحقيقة أننا ندرس لغتنا العربية وأدبها بطرق وأساليب عقيمة لا تؤدي إلى نتيجة، وهذا ليس قدرا مفروضا علينا، وينبغي أن يتغير»⁴¹

ولا تغيب هذه الظاهرة كما قلنا على مرصد الصراع اللغوي، والثقافي، والفكري خارج أوطاننا، ولأمر ما وجدنا عدة دراسات أجنبية فرنسية خاصة تتناول التعريب في الجزائر، وتهتم به...

وحيث ينبغي الانتباه إلى ذلك، فإنه لا يمكن إغفال ما جلبه الاستشراق أيضا من كيد للغة العربية وما بيت لها من مكر وما ناصبها من عدااء... (إذ ليس كل ما يأتي من الشرق خيرا بالضرورة).

• موقف الإدارة من تراجع العربية⁴²

تعيش اللغة العربية في عصرنا الراهن مرحلة صراع مرير ضد القوى الخفية والظاهرة، ومع ذلك فلا تزال تمارس وظيفتها القومية والسياسية في حفظ الوحدة اللغوية كما تمارس وظيفتها في الحفاظ على الشخصية العربية والتاريخ العربي والإسلامي.

ليس يخفى على أحد أن الإعلام بوسائله المتنوعة يعد أهم مصدر للتشكيل الثقافي، غير أن عوامل أخرى لها تأثيرها الكبير في هذا التشكيل، ومنها الموقف الإداري من استعمال اللغة العربية والتعامل بها.

ولما كانت الإدارة هي عصب الحياة في أي مجتمع، تسرب العنصر الفرنكوفيلي إلى دواليبها وبسط نفوذه عليها، يساعد على ذلك الظرف التاريخي الحضاري، ويعزز موقفه العدائي للغة العربية جملة من العوامل الداعمة الداخلية منها والخارجية.

فمن العوامل الخارجية المشجعة لموقف المفرنسين ما نلاحظه من تقدم علمي وحضاري يتمتع به المجتمع الأوربي والنفوذ السياسي الذي تمارسه الدولة الفرنسية على بلادنا بحكم استعمارها وتبعيتها لها في أكثر من ناحية من نواحي الحياة المختلفة، علما بأن الدولة الفرنسية لا تدخر جهدا في نشر لغتها ودعم ثقافتها بكل الوسائل المتاحة المباشرة وغير المباشرة. فكيف إذا وجدت من يؤثرها على غيرها ويسعى إلى خدمتها؟ فمن المؤكد أنها تسرع إلى احتضانه وتلبية رغباته. أما العوامل الداخلية فتتمثل في عدة مواقف رسمية كثيرا ما تظهر في شكل قرارات سياسية وإدارية. فمن القرارات السياسية مثلا تجميد العمل بقانون تعميم استعمال اللغة العربية⁴³ الذي وقعه الرئيس علي كافي والذي لم يعرف طريقه إلى التطبيق إلى وقتنا هذا...

ومنها أيضا ترقية العنصر المثقف باللغة الفرنسية إلى المناصب العليا ذات سلطة ونفوذ في أجهزة الدولة كالوزارات والإدارات المركزية وكبرى الهيئات التسييرية في مختلف القطاعات وتولييتهم بعض المهام الإدارية التنفيذية الحساسة في الجماعات المحلية كالولاية والدائرة بالرغم من تعريبها، وتهميش العنصر المعرب مهما توفر على أعلى الشهادات العلمية.. إلا ما كان في بعض القطاعات العلمية المتخصصة (كالمادة التعليمية مثلا). ومنها أيضا العمل على ترقية التعامل باللغة الفرنسية في بعض القطاعات بالرغم من توفر النصوص التنظيمية التي تمنع استعمال غير اللغة العربية. وهكذا، حتى التوظيف العام في المناصب العادية لدى بعض المؤسسات العمومية ذات الطابع الاقتصادي كالبنوك وغيرها فإن الأولوية تعطى لحملة الشهادات بالفرنسية ولا يطمع المعربون إلا في المناصب التي استتكتف عنها المفرنسون ورغبوا عنها.

وأما التحدث باللغة الفرنسية فهو في مجتمعنا من سمات التقدم والتطور والتنوير والرقى الحضاري، حيث تفشت هذه الذهنية وأصبحت نمط حياة لطبقة اجتماعية متميزة، مما شجع على استعمال اللغة الفرنسية في كثير من الأوساط الاجتماعية، ناهيك عن الأوساط السياسية ومرتادي الصالونات والفنادق الفاخرة حيث يلتقي رجال الأعمال وكبار رجال السياسة. فهناك لا تسمع إلا حديثا بلغة فولتير عنوان الأرسطراطية الجديدة . ولم يسلم النظام التربوي من هذه النكسة حيث صدر قرار يلزم التلاميذ والمعلمين بكتابة العمليات الحسابية في الرياضيات من اليسار إلى اليمين مع استعمال الرموز الفرنسية. وذلك بعد مضي أكثر من ثلاثة عقود من كتابتها باللغة العربية من اليمين إلى اليسار، وتعود التلاميذ عليها ؟..

يضاف إلى ذلك فرنسة كل الشعب العلمية في التعليم العالي كالطب والصيدلة والإعلام الآلي والتكنولوجيا والهندسات المختلفة. ولم يبق للغة العربية سوى بعض الشعب الانسانية والاجتماعية تشاركها فيها اللغات الأجنبية وقد عرفت البرامج التعليمية تعديلات لصالح الفرنسية على حساب اللغة الوطنية تجلت في المواقيت والمعاملات مما سمح بفتح مناصب عمل لذوي الشهادات باللغة الفرنسية.

أما عن البحث العلمي، فإن الدولة الفرنسية توفر لطلبة ما بعد التدرج في اللغة الفرنسية كل الامكانيات وتسهر على تسهيل إجراءات التسجيل والالتحاق بجامعاتها ومعاهدها العليا، إذ يكفي أن يسجل الطالب نفسه في أي مستوى ليلقى كل الدعم والتسهيلات المشجعة على مواصلة الدراسة، بما في ذلك الاستفادة من المنح الدراسية المختلفة والتكفل التام بالتربصات الميدانية منذ السنة الأولى التحضيرية. وذلك على عكس ما يلاقيه الطلبة الباحثون باللغة العربية الذين يعانون معاناة حقيقية في تعاملهم مع مختلف الهيئات الإدارية والعلمية في الجامعات الوطنية والعربية حيث لا يمكن للطلاب الباحث المعرب أن يحصل على ما يساعده على البحث إلا بعد جهد وعناء كبيرين وبعد أن يستجيب لشروط تكاد تكون تعجيزية، ناهيك عن التعاملات البيروقراطية والإجراءات التعسفية التي تحول دون الاعتراف بالبحوث المنجزة ونشرها وترقيتها. مما يجعل الطالب الباحث يراوح مكانه ترويضاً له مدة معينة يحيط به اليأس من كل جانب، قد تمتد مدة الترويض هذه لسنوات طوال ثقال قبل أن ينال مؤشر الرضا؟ أما فيما

يتعلق بامتحانات ومسابقات تحضير الماجستير وغيرها من شهادات ما بعد التدرج، فإن الطلاب المسجلين في الفروع الفرنسية ينجحون بسهولة، إلا من أبي، لأن في ذلك خدمة للغة الفرنسية، في حين لا يوفق من المعربين إلا من أثبت جدارة نوعية وكفاءة خاصة وبرهن على استعداد نفسي يؤهله للمصابرة والمكابدة ومرارة التحمل والصمود، ويعد التعليم باللغة الأجنبية في مختلف أقطار الأمة الإسلامية عاملاً هاماً في فرض ثقافتها ووجهة نظر أهلها وفي الوقوف موقف الإعجاب بالأجنبي واتباعه والعجز عن مواجهته. ومن يدرس تجارب التعليم الغربي في البلاد العربية يجد الولاء الواضح للنفوذ الأجنبي.

لهذه الأسباب وغيرها أصبحت اللغة العربية قاصرة وعاجزة عن منافسة اللغة الفرنسية حتى في بلادها وبين أهلها. ولعل هذا ما يفسر تراجع اللغة العربية عن مكانتها في مجتمعنا العربي الجزائري وعزوف أبنائها عنها إلى غيرها من اللغات الحية الأخرى التي غدت تصلح وسيلة ناجعة للعمل والتعامل والارتقاء والنفوذ ...

هذه بدون مبالغة حال اللغة العربية في مجتمعنا الجزائري، لغة أهملها أبنائها فظلت تتدب حظها العاثر وتستغيث أهلها، وليس لها من مجيب يحمل لواءها ويسترجع لها هيبته. يذكرنا ذلك بعض صور الانحطاط حيث كان التردّي فيها عاملاً من عوامل ضعفنا اللغوي، وهذا التردّي لم يكن مقصوراً على العامة من الناس بل شمل العلماء والفقهاء حتى كان يعجز الكثير منهم عن كتابة رسالة خالية من العجمة، بريئة من الركاقة أو العامية، سليمة من الخطأ. وكانت دروس الفقه والدين بل دروس النحو والبلاغة تلقى بلغة مشوبة بالعامية منحطة عن الفصحى.

أما أساليب العرب الفصيحة والكلام البليغ فقد كانوا بعيدين عنه كل البعد، فقد اختفت الفروق اللغوية وأصبحت الألفاظ المتقاربة مترادفة. ولم يبق الترادف مزية من مزايا العربية بل مرضاً من أمراضها الوافدة المنتشرة، وغلب على الناس استعمال الألفاظ في معانيها العامة فضاعت من اللغة بل من التفكير مزية الدقة التي عرفت بها العربية في عصورها السالفة، وأدى ذلك إلى تداخل معاني الألفاظ حين فُقدت الدقة واتصفت بالعموم، وفقد الفكر العربي الوضوح حين فقدته اللغة نفسها، واتصفت بالغموض،

وانفصلت الألفاظ عن معانيها في الحياة وأصبحت عالماً مستقلاً يعيش الناس في جوه بدلاً من أن يعيشوا في الحياة ومعانيها . يقول شاعر النيل على لسان اللغة العربية.

رَجَعْتُ لِنَفْسِي فَاتَّهَمْتُ حَصَاتِي *** وَنَادَيْتُ قَوْمِي فَاحْتَسَبْتُ حَيَاتِي
رَمَوْنِي بِغُفْمٍ فِي الشَّبَابِ وَلَيْتَنِي *** عَقُمْتُ فَلَمْ أَجْزَعْ لِقَوْلِ عِدَاتِي
وَلَدْتُ وَلَمَّا لَمْ أَجِدْ لِعِرَاسِي *** رَجَالاً وَأَكْفَاءَ وَأَدْتُ بَنَاتِي
أَنَا الْبَحْرُ فِي أَحْشَائِهِ الدُّرُ كَامِنٌ *** فَهَلْ سَأَلُوا الْغَوَاصَ عَنْ صَدَفَاتِي
فِيَا وَيَحْكُمُ أَبْلَى وَتَبْلَى مَحَاسِنِي *** وَمِنْكُمْ وَإِنْ عَزَّ الدَّوَاءُ أَسَاتِي
فَلَا تَكُونِي لِلزَّمَانِ فَإِنِّي *** أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَحِينَ وَفَاتِي

سبق أن أشرت فيما مضى إلى بعض الأسباب التي حالت دون تبوء العربية مكانتها في مجتمعنا مع أن الوضع لم يقتصر على المجتمع الجزائري فحسب، فاللغة العربية تعرف تراجعاً عاماً في كل البلاد العربية، ويبدو أن شأنها اليوم مغاير لما كانت عليه نتيجة ضعف أبنائها حتى أخذت تظهر بأنها هي الواهنة، فقد بدأت العربية تتراجع عن أداء دورها الإبداعي والحضاري العالمي، فلم تعد تتمي الذوق والعقل بالصور الساحرة والأفكار المفيدة؛ وصارت الثنائية اللغوية، أو ازدواجية اللغة مع العاميات من أبرز مشكلات العربية.

إن المجتمع العربي أضحي - غالباً - مجتمعاً استهلاكياً لا إبداع فيه، لأنه يحتاج إلى كل ما تقدمه له المدنية الحديثة تقنياً واقتصادياً وثقافياً، وكل ذلك يأتيه بطريق الآخر ولغته، أي إن العقل العربي لم يعد منتجاً للفكر والإبداع، ولم يعد فارس الميدان سياسياً واقتصادياً ومعرفياً وعلمياً، فهو ضعيف متخلف، يعيش على حلم مستحيل التحقيق لأنه لا يوفر له أدواته المطلوبة ولا يمكن للغة العربية أن تسترجع مكانتها إلا بنهضة أبنائها وخدمتهم إياها. علماً بأن خدمة العربية هي خدمة القرآن ولو من وجه بعيد . وإن السلف الصالح ما قصرُوا في خدمتها حيث جاهدوا بالجهد والمال والوقت لخدمة لغة القرآن، عكفوا على تعلمها لما لها من مكانة مقدسة في نفوسهم، غاروا عليها، وغاروا على بيانها المعجز أن تدنسه عجمة الأعاجم ولوثة الإفرنج، فقضوا سني حياتهم في تعقيدها وإشادة أركانها ورسم أوضاعها ...

إن من أكبر مصائب الأمة أن تعزف عن لغتها وأن يكون تعليمها بغير لغتها، وتفكيرها بغير أدواتها، وقياس حاضرها بمعايير وضوابط حضارية غريبة عنها ...

هذه الحالة من التخاذل والتكاسل والتبعية، جعلت العربية تواجه مجموعة من التحديات والمصاعب وقفنا منها كلنا موقف المتفرج، إن لم نكن شاركنا فيها من حيث شعرنا أو لم نشعر، وقد آن الأوان أن نفصح خطط الأعداء ونكشف عن نواياهم الخبيثة ونثبت للعالم أن هذه اللغة ثرية

غنية باقية، فنرعاها حق الرعاية ولا ندعها تتعرض للتقويض والانحيار والغزو اللغوي الشرس

من الداخل والخارج ...

• حال اللغة من حال أهلها ؟

تعاني اللغة العربية اليوم معاناة حقيقية جراء نكسة فظيعة وتقويض مميت، تشكو وضعها المزري، وتستغيث أهلها، وقد أصبحت مساحة تراجعها تزداد مع الأيام شيئاً فشيئاً. وقد مر بنا ذكر بعض الأسباب التي أدت بها إلى هذه الانتكاسة وذلك التراجع الذي يقول عنه حافظ إبراهيم على لسان اللغة العربية:

فيا وَيَحْكُمُ أَبْلَى وَتَبْلَى مَحَاسِنِي *** وَمِنْكُمْ وَإِنْ عَزَّ الدَّوَاءُ أَسَاتِي
فلا تَكْلُونِي لِلزَّمانِ فَإِنِّي *** أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَحِينَ وَفَاتِي

لا مرأ أن اللغة العربية تعاني إهمالاً مميتاً من قبل أبنائها سواء كان ذلك بقصد أو بدونه. وهنا لا بد من الإشارة إلى التقصير الذي تتصف به المجامع اللغوية العربية التي تبدو منشغلة بقضايا لغوية مجردة نظرية لم تصل إلى سقف خطورة ما تتعرض له اللغة العربية.

إن العالم العربي يتعرض اليوم لموجة غزو لغوي ثقافي لا انقطاع لها. ولعل أخطر ما في الأمر وجود شرائح مجتمعية عربية قد أخذت على عاتقها عملية التسويق الثقافي

واللغوي غير العربي متحمسة للتبشير به على أنه سمة العصر والعصرنة والرقى والانطلاق الى العالمية.

وفي هذا الصدد ليس ثمة عربي غيور على عروبتة ولغته، يرفض التطور الثقافي واللغوي الايجابي للعالم العربي، ومن المؤكد أن ازدهار سوق اللغات والثقافات الأجنبية فيه لا يشكل أدنى مشكلة لو أن هناك جهاز حماية للغة والثقافة العربيتين اللتين تتعرضان للتقلص والانكماش والتراجع والشعور بالنقص والدونية.

أَرَى لِرِجَالِ الْغَرْبِ عِزًّا وَمِنْعَةً *** وَكَمْ عَزَّ أَقْوَامٌ بِعِزِّ لُغَاتِ
أَتَوْا أَهْلَهُمْ بِالْمُعْجَزَاتِ تَفَنُّنًا *** فَيَا لَيْتَكُمْ تَأْتُونَ بِالْكَلِمَاتِ

إن ما تتعرض له اللغة العربية تحديدا - باعتبارها إحدى أعمدة الثقافة العربية الرئيسية خطير للغاية. والخطورة هنا تتبع من كونها تتآكل في أكثر من موقع بدءا بمناهج تدريس اللغة العربية العقيمة غير المتطورة في المؤسسات التعليمية التي تفرز أجيالا لا تتقن لغتها، ومرورا بطبقة المثقفين العرب الذين على ما يبدو أن غالبيتهم في حالة خصام مع قواعد هذه اللغة نحوها وصرفها، ووقفا عند العاملين في حقل الإعلام الفضائي الذين ينتهكون حرمان قواعد عشرات المرات في مراسلاتهم ونشراتهم وبرامجهم، وانتهاء بالأسواق التجارية التي غزتها اللافتات والتسميات. والعلامات التجارية. غير العربية.

فثمة أسواق تجارية في عواصم ومدن عربية لا يوجد أدنى أثر فيها للغة العربية وكأنها متواجدة في عواصم ومدن أوروبية. إلا أن الأخطر من هذا كله هو ذلك الكم الهائل من الإعلانات التجارية والدعائية الأخرى باللغة العامية الركيكة، سواء كانت شاخصات أو لافتات، أو منشورة في الصحف والمجلات، أو المطبوعات الأخرى

يَطْرِبُكُمْ مِنْ جَانِبِ الْغَرْبِ نَاعِبٌ *** يُنَادِي بِوَادِي فِي رَبِيعِ حَيَاتِي
وَلَوْ تَرَجُّرُونَ الطَّيْرَ يَوْمًا عَلِمْتُمْ *** بِمَا تَحْتَهُ مِنْ عَثْرَةٍ وَشَتَاتِ

إن ما يثير الاستغراب حقًا لدى أبناء الأمة الجزائرية، هو منظومة الدلال والخطوة والأولوية والمكانة التي تحظى بها اللغة الفرنسية في بلاد العروبة موطن المجاهدين والشهداء على حساب اللغة العربية التي يفترض وفقا لدستور البلاد أنها اللغة الرسمية إلى جانب كونها لغة القرآن الكر

أرى كُلَّ يَوْمٍ بِالْجَرَائِدِ مَزْلَقًا *** مِنْ الْقَبْرِ يُدْنِينِي بغيرِ أَنَاةٍ
وَأَسْمَعُ لِلْكِتَابِ فِي مِصْرٍ ضَجَّةً *** فَأَعْلَمُ أَنَّ الصَّائِحِينَ نُعَاتِي
يَهْجُرْنِي قَوْمِي عَفَا اللَّهُ *** عَنْهُمْ إِلَى لُغَةٍ لَمْ تَتَّصِلْ بِرُؤَاةٍ
سَرَتْ لَوْثَةُ الْإِفْرِنجِ فِيهَا كَمَا سَرَى *** لُعَابُ الْأَفَاعِي فِي مَسِيلِ فُرَاتٍ
فَجَاءَتْ كَنْثُوبٌ ضَمَّ سَبْعِينَ *** رُقْعَةً مُشَكَّلَةً الْأَلْوَانِ مُخْتَلِفَاتٍ

وكم يتحسر الانسان العربي الغيور على لغته وثقافته من افتقار العالم العربي إلى مؤسسة قومية على نمط الفرنكوفونية. إن مثل هذه المؤسسة التي لا يمكن أن تقوم إلا من قبل السلطة، لو كتب لها أن ترى النور ذات يوم لأمكنها أن تحقق أهدافا قومية متعددة، فهي تعمل من ناحية على حماية اللغة العربية وتطويرها وإيلائها المكانة التي تستحقها، ومن ناحية أخرى على توسيع الرقعة الجغرافية التي تغطيها، وتسهيل انتشارها وبخاصة بين الشعوب الاسلامية، كون العربية هي لغة القرآن الكريم والصلاة والأذان والعلوم الدينية الأخرى.

وقد لا تقف هذه المؤسسة - إذا فكرت السلطة في إنشائها- عند الحدود المذكورة فحسب، بل ثمة أهداف قومية أخرى يمكن أن تصل إلى تحقيقها. فالعالم العربي اليوم بحاجة ماسة الى توحيد مشروعاته ورؤاه الثقافية في إطار يؤمن بالانفتاح على الثقافات واللغات الأخرى دون المساس بالجزور، تحت مظلة قومية تكون قادرة على إثبات وجودها والتصدي للتحديات الثقافية الواردة من خارج حدود العالم العربي، سواء تلك الآتية غزوا أو جراء تطور تقنيات الاتصال بين الشعوب.

وقد يكون من أهم أهداف هذه المؤسسة أيضا - والعولمة الثقافية آخذة في الاجتياح - أن تساهم في المنظومة العالمية كيلا تذوب في تيارها الجارف فتنمحي شخصيتها بالرغم مما تتميز به من خصوصيات وتتفرد به من مزايا وخصائص.

في العالم العربي هناك الكثيرون الذين يغارون على لغتهم ومنظومة ثقافتهم ويستشعرون المخاطر التي تحيق بهما. وهم يعلمون يقينا الدوافع الكامنة وراء هذا التراجع الذي منيت به اللغة العربية والتي يمكن تصنيفها بالغزو الثقافي الذي يعمل

على الاقتلاع من الجذور والخروج من الجلد، والارتقاء في أحضان العولمة التي لا تعترف بالتعددية الثقافية، ساعية إلى نشر ثقافة الأقوى.

لقد أدرك الاستعمار أن الثقافة هي العصب الذي يمكن مهاجمته وتخديره وإماتته بهدف وضع "حشوة ثقافية بديلة" تحمل في تركيبها عناصر ضعف الانتماء والتقليد الأعمى والشعور بالنقص والدونية والعجز في مقابل فوقية حضارة الآخر - وبمعنى أصح الحضارة الغربية - ولغاته وثقافته. يقول حافظ إبراهيم في هذا المجال مستهزئاً بهم:

سَقَى اللهُ فِي بَطْنِ الْجَزِيرَةِ *** أَغْظَمًا يَعِزُّ عَلَيْهَا أَنْ تَكِينَ قَنَاتِي
حَفِظَنْ وَدَادِي فِي الْبَلَى وَحَفِظْتُهُ *** لَهْنٌ بِقَلْبٍ دَائِمِ الْحَسَرَاتِ
وَفَاخَرْتُ أَهْلَ الْعَرَبِ، وَالشَّرْقُ مُطَرِّقٌ *** حَيَاءً بِتِلْكَ الْأَعْظَمِ النَّخَرَاتِ

إن وصف ما آل إليه اللسان العربي من وضع مزري يدمي الفؤاد ويحز في النفس، ولا يمكنك أن تتجاهله أو تتغافل عنه، بل لا يكاد الحديث عنه ينتهي حتى يشغلك من جديد، فيثير فيك حسرة وآلاما عند ذكر جوانب أخرى لا تقل خطورة وأهمية، ومهما تقل، فإن قلبك سيظل متعلقاً بما تركت، وهو كثير، وكأنك لم تقل شيئاً أو كأنك لم تذكر الأهم.

والحال هذه، فلا يمكنني أن أختتم مقالي هذا قبل أن أشير إلى ما للعربية من أهمية في حياة العرب والمسلمين وما لها من فضل عليهم جميعاً بالرغم مما عانتها من كيد الأعداء وعقوق الأبناء، فأقول إن اللغة العربية هي الرابط الذي يوحد بين أوطان المسلمين، وهي الأثر الفعال في كيان الأمة العربية وهي سر وجودها ودليل رقيها وازدهارها ولا ريب.

لقد تعرضت هذه اللغة في عمرها المديد وتاريخها المجيد لتيارات عاصفة ورياح جارفة، ولكن برسوخها وثباتها قاومت عوامل العداء والتشويه التي تأمرت عليها، وكانت في كل عصر نقطة التجمع والقوة، وكانت ركيزة الالتقاء المبارك بين أبناء الشعوب العربية والإسلامية وسر استمساكهم بعقيدتهم وبأوطانهم، وسر استعصائهم على ضربات المعاول التغريبية، وهكذا بقيت الفصحى شامخة في قلاعها الحصينة، ترد سهام أعدائها

إلى نحورهم، وبعد جولات متتالية وصراعات متتالية خرجت قوية عزيزة تنبعث في أوصالها دماء جديدة تزيدها قوة وحيوية، تؤدي دورها الحضاري عبر التطور الدائم الذي تعيشه البشرية.

ولكن في الآونة الأخيرة شعرت لغتنا العريقة بطعنات خلفية وحروب خفية، تأتيها من مأمنها على أيدي فئة منهزمة ليس لها من الأدب واللغة نصيب، قد تأثرت وانبهرت بكتابات المستشرقين والمغرضين، وتطلعت لحضارة الغرب الزائفة، ينادون كما ينادي المستعمر تماماً بلهجات ليس لها أي نسب صحيح بالفصحى، لتكون وسيلة التحدث والكتابة، وهم بهذه الهلهلة والخلخلة اللغوية والدعوة المريبة يصنعون حبال مشنقة جديدة للفصحى، ويثيرون غارة شعواء على لغة القرآن الكريم المحفوظة بحفظ الله لها.

مما لا شك فيه أن الفصحى هي أغنى لغات الأرض قاطبة، بما تحوي من مفردات غزيرة، وألفاظ ومرادفات متدفقة، ومعان واسعة، إلا أننا رأينا أناساً أخذوا قشوراً من العلم فظنوها لباباً؛ وغثاء من الفكر فظنوه ثميناً، أعماهم الجهل فزعموا أن الفصحى جامدة وغير مسايرة للتطور؟!، بل ويرون فيها صعوبة وتعقيداً، بفلسفاتهم وضعفهم باللغة جعلوا اللغة العربية في معرض النقد الجارح، وحملوا عليها حملة ظالمة يريدون أن تحتل العامية مكانة الصدارة، فما أظلمهم لأنفسهم وللناس، وكيف بلغ بهم العقوق للغة الضاد هذا المبلغ؟!.

فهل يريدون إخراج الناس من لغة حية ثرية نابضة تاريخية عريقة إلى لهجات ركيكة فارغة؟!.

لقد راجت دعاوى تتهم الفصحى بالعقم والبداءة، وتلقي عليها مسؤولية تخلفنا، وتزعم أن للعامية قدرة على الوفاء بحاجات البشر، وقدرة على التعبير عن مطالب الحياة العصرية.

عجباً من تلك الدعاوى التي أطلقوها، لقد نسي هؤلاء طواعية الفصحى ومرونتها وقدرتها على أداء مطالب النفس الإنسانية بمشاعرها وانفعالاتها، فتسللوا تحت ستار الواقعية ينفثون سمومهم ويعبثون بأصول اللغة، لقد بذل أعداء لفصحى جهوداً جبارة لمحاربتها وحركوا الأقلام المأجورة ضدها، فأثمرت ثمرتها المشؤومة، فنشأت في الأمة أجيال بعُدت عن لغتها، واستبدت بها العامية، وتمسكت برطانة الأعاجم. وصارت الأمة تعيش ضعفاً

عاماً في إجادة اللغة العربية، ويرجع هذا الضعف لأسباب متعددة، منها:

- 1- ضعف كثير ممن تصدر للتعليم وهو لم يتقن أصول اللغة.
- 2- كثرة الموضوعات على الطلاب مما أدى إلى إغفال جانب التطبيق والفهم.
- 3- أن الناشئ العربي في مراحل دراسته الأولى يكون عاجزاً عن دفع ما استحکم على لسانه من سلطان العامية، ثم يتخرج في المرحلة الثانوية ولم يحصل من فقه العربية إلا غواشي مختلطة، لم يقطف منها ثمرة ذات قيمة، أما صلته بقواعد النحو والصرف كالسائح الأجنبي ببلاد لم يرها ولم يسمع عنها، ولسانه يلتوي ويطرطن حتى إذا ما وقف ليقراً في المصحف آيات من القرآن الكريم، كان كمن يجاهد في حل خط أثري على جدار متحف قديم.

ولا أكون مبالغاً إذا قلت إنه لا يعرف الفرق بين أداة التعريف القمرية والشمسية، بل رأيت من بين الطلاب من لا يشرف الإنسان أن يسمعه أو يصغي إليه، ولكن هذه هي المشكلة التي ينبغي أن نجد لها العلاج الناجع، ويجب أن يبدأ العلاج من حيث بدأ الضعف، فينبغي أن ننشئ الأبناء على حُب القراءة ليخترن الطفل في نفسه قوالب التعبير الصحيح، وتنسج في خياله الصور الجمالية لألفاظه وتراكيبه، مما يجعله بعد ذلك يستقبل قواعد العربية ويستوعبها ويطبقها في يسر وسهولة.

ولكي نعالج المشكلة من جذورها، فينبغي أولاً وقبل كل شيء، الاهتمام بتخريج المدرس الناجح المتمكن الذي يحب لغته ويعمل على ترسيخها في أفئدة تلاميذه، ويطوِّع ألسنتهم على النطق الصحيح بها، فإذا ما غرس في نفس الناشئ نواة التدنوق الأدبي أمكنه أن يستوعب قواعد الإعراب ويطبقها؛ لأنها تكون حينئذ موافقة لما استساغه طبعه، وتفاعل مع نفسه، ودرج عليه لسانه.

وفي سبيل الإصلاح، ينبغي ألا نكتفي بما تبذله وزارات التربية والتعليم من جهد تعليمي، بل يجب تجنيد كل المؤسسات العلمية والهيئات الثقافية والأوساط الأدبية حتى تتبوأ لغتنا مكانتها الجديرة بها، وتحتل موقعها اللائق بها في النفوس. كما ينبغي العناية بالمناهج وحسن اختيار ما يقدم للناشئين، بحيث لا يقرر عليهم من القواعد والنصوص إلا ما يتوافق مع أعمارهم، ويمتدح نفوسهم، ويغذي كياناتهم، ويرهف مشاعرهم، فإن لذلك أبعد الأثر في إنكاء محبة الفصحى والتعلق بها، ونبذ كل دعوة

تعارضها، ولابد من العناية التامة بجانب التطبيقات لكل درس، وعدم تجاوز الموضوع الواحد إلا بعد استيعابه تماماً من جانب الطلاب. وبهذا تتضاءل العقبات وتقوى الصلة بين الناشئين ولغتهم الحية المتجددة ذات الدلالة والرواء.

• واجبنا تجاه اللغة العربية

مما لا يحتاج إلى تأكيد أن أولى واجباتنا تجاه اللغة العربية أن نتعامل بها ونستعملها في جميع مجالات حياتنا اليومية. فالتعامل اليومي باللغة العربية في كل نشاطاتنا من العوامل الأساسية لإحياء أصولها والحرص على سلامتها واسترجاع منزلتها.

ومن المسلمات التي لا يختلف حولها اثنان، أن اللغة كائن حي ينمو ويتطور بفعل الزمن، وأن التواصل بها وكثرة استعمالها وتداولها بين أبناء المجتمع، يؤدي بالضرورة إلى كثير من التطورات والتغييرات، التي تطرأ على الألفاظ تيسيراً لنطقها، وعلى التراكيب والأساليب الفصيحة تيسيراً لفهمها والتعامل بها، وتهيئ الطريق إلى سيادة لغة على حساب أخرى والذي يحكم ذلك هو عنصر الانتقاء والاختيار من قبل أفراد المجتمع.

يرى علماء اللغة أن كثرة الاستعمال من الظواهر الاجتماعية اللغوية التي تحكم كثيراً من أبواب اللغة الفصيحة، ولا سيما إذا كانت ذات أصول وجذور ضاربة في أعماق التاريخ، كاللغة العربية التي يحفل تاريخها بجهود العلماء الجبارة لرصد وتعليل الكثير من الظواهر اللغوية، في عصور الاحتجاج، حتى لا تضيع اللغة باختلاف الأهواء وفساد ألسنة الناطقين بها وقد فشا اللحن وسادت بينهم اللهجات ولا سيما في اللغة المنطوقة.

نستنتج مما سبق أنه ما من لغة تستطيع أن تطاول اللغة العربية في شرفها، فهي الوسيلة التي اختيرت لتحمل رسالة الله النهائية، وليست منزلتها الروحية هي وحدها التي تسمو بها على ما أودع الله في سائر اللغات من قوة وبيان، أما السعة فالأمر فيها واضح، ومن يتبع جميع اللغات لا يجد فيها على ما سمعته لغة تضاهي اللغة العربية،

ويُضاف جمال الصوت إلى ثروتها المدهشة في المترادفات. وتزيّن الدقة ووجازة التعبير لغة العرب، وتمتاز العربية بما ليس له ضريب من اليسر في استعمال المجاز، وإن ما بها من كنايات ومجازات واستعارات ليرفعها كثيراً فوق كل لغة بشرية أخرى، وللغة خصائص جمّة في الأسلوب والنحو ليس من المستطاع أن يكتشف له نظائر في أي لغة أخرى، وهي مع هذه السعة والكثرة أخصر اللغات في إيصال المعاني، وفي النقل إليها، يبيّن ذلك أن الصورة العربية لأيّ مثل أجنبيّ أقصر في جميع الحالات، وقد قال الخفاجي عن أبي داود المطران - وهو عارف باللغتين العربية والسريانية - أنه إذا نقل الألفاظ الحسنة إلى السرياني قبّحت وخسّت، وإذا نُقل الكلام المختار من السرياني إلى العربي ازداد طلاوةً وحسناً، وإن الفارابي على حقّ حين يبرّر مدحه العربية بأنها من كلام أهل الجنّة، وهو المنزّه بين الألسنة من كل نقيصة، والمعلّى من كل خسيصة، ولسان العرب أوسط الألسنة مذهباً وأكثرها ألفاظاً⁴⁴

أجل، لقد خاضت الفصحى معارك ضارية وحروباً علنية، وأخرى ناعمة خفية، وظن الحاقدون الظنون، ولكن كان لهذه اللغة العظيمة من أصالتها وقوتها وعوامل بقائها ما حفظ كيانها، ودفع عنها غوائل الفناء ونصرها على سهام الأعداء. ومهما دبروا فإنها ستبقى وتعيش وتتفاعل مع الواقع لا تتخلف، ولا تعزل، ولا تجمد، وإنما تسري في كيان الأمة نبعاً دافقاً. وستبقى لغتنا تسامر الزمن وتستجيب لتجدد الحياة واتساع آفاقها، تبقى ولا تموت فإنها لغة القرآن الكريم.

• الخاتمة

ويسرني في الأخير أن أختتم بهذه الأبيات التي ختم بها حافظ إبراهيم قصيدته عن اللغة العربية، قال فيها:

إِلَى مَعْشَرِ الْكِتَابِ وَالْجَمْعِ حَافِلٌ *** بَسَطْتُ رَجَائِي بَعْدَ بَسْطِ شَكَاتِي
فَإِمَّا حَيَاةٌ تَبْعَثُ الْمَيِّتَ فِي الْبَلَى *** وَتُنْبِتُ فِي تِلْكَ الرُّمُوسِ رُفَاتِي
وَإِمَّا مَمَاتٌ لَا قِيَامَةَ بَعْدَهُ *** مَمَاتٌ لَعْمَرِي لَمْ يُقَسْ بِمَمَاتِ

فإذا كنا غيورين حقا على لغتنا العربية ومنظومة ثقافتنا، ونخشى عليهما من التراجع والذوبان في الآخر، وإذا كنا نريد أن نكون حضاريين وعالميين، فالانطلاق يكون من الجذور والأصالة والمحلية والخصوصية والتميز والفرادة. وباستطاعتنا أن تكون لنا مؤسستنا الثقافية الخاصة على شاكلة الفرنكوفونية، من أجل تجسيد الهوية العربية وتعميق الانتماء إليها، وإيجاد المكانة اللائقة للأمة العربية الناطقة بالعربية بين أمم العالم وشعوبه الأخرى.

ويكفي اللغة العربية شرفا وكرامة أنها لغة القرآن الكريم، وأن مليارا وثلاثمائة مليون مسلم يشكلون احتياطا استراتيجيا لنشرها بينهم. لكن المطلوب أولا إرادة جماهيرية نابعة من وعي قومي عقائدي انتمائي تجاه اللغة العربية بصفقتها المقوم الرئيس للشخصية الثقافية العربية، وعنصرا. هاما من عناصر وجودها وكرامتها.

إن قرار المستوى السياسي الحريص على تقديمها، والسعي الجاد من أجل أن تتبوأ المكانة التي تستحقها، والدفاع عنها وحمايتها يأتي في المقام الأول دون أدنى شك، وينبغي تفعيله على المستويات الحياتية كلها. إن اللغة العربية، وهي سر وجودنا وعنوان ثقافتنا أصيلها وحديثها، تستحق من أبنائها أن ينشئوا لها مؤسسة على نمط الفرنكوفونية. وبخاصة إذا علمنا أن كل الوسائل متوفرة، الدين والمال ووسعة البلاد الإسلامية...

ليس من شك في أن اللغات على وجه الأرض كلها تحظى بعناية أصحابها، وتحتل في حياتهم مكانة متميزة، فلا يستغني عنها أحد لكونها نتيجة حتمية للحياة، ولأنها بمثابة الروح من الجسد، تحيا على ألسنة المتكلمين بها، وتعيش في أحضان المجتمع، تستمد كيانه من عاداته وتقاليده وسلوك أفرادها، كما تستمد حيويتها من حيويتهم، فترقى برقيهم وتتحط بانحطاطهم.

وعليه فإننا ننتظر من المعريين من أبناء الأمة العربية عامة والجزائرية خاصة، ألا يقفوا موقف المتفرج، وكأن الأمر لا يعنيه، بل عليهم أن ينقطنوا للمؤامرة الواسعة المتجددة التي تحاك ضد اللغة العربية فينهضوا لحمل لوائها والدفاع عنها بكل الوسائل المشروعة التي تكفلها القوانين الرسمية للبلاد، والتي تنتظر من يسهر على تطبيقها وتفعيلها في الميدان، ولا يتأتى ذلك إلا بأخذ زمام المبادرة.

وعلى الهيئات الرسمية المحسوبة على اللسان العربي وفي مقدمتها المجلس الأعلى للغة العربية أن يبادر - وبكل فعالية - إلى اتخاذ الإجراءات العملية الحقيقية الكفيلة باسترجاع العربية منزلتها في بلادها وبين أهلها.

وفق الله الجميع إلى ما فيه خير الأمة وخير العربية. والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل.

الهوامش:

- ¹ انظر محمد الميلي، الشيخ مبارك الميلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2001، ص56.
- ² Chautain -
- ³ General Lyautey -
- ⁴ -يراجع "اللسان العربي يستغيث" مقال للدكتور عمار طالبي مجلة البصائر العدد 452.
- ⁵ -مصطفى ماضي، النخبة والمسألة اللغوية في الجزائر، دار القصة للنشر، الجزائر، 2008، ص53.
- ⁶ -صالح خرفي، مدخل إلى الأدب الجزائري الحديث، مجلة الثقافة، العدد 21، السنة الرابعة، جوان/جويلية، الجزائر 1974.
- ⁷ المرجع نفسه، ص29، انظر مصطفى شريك، اللغة العربية والاستراتيجية الاستعمارية، مجلة اللغة العربية التي يصدرها المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر 2005، ص361.
- ⁸ - انظر، التركي رابح، التعليم القومي والشخصية الجزائرية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1981، ص103
- ⁹ - James W. Tollefson, Planning language... Planning Inequality, Pearson Educational Limited
- ¹⁰ - يمكن مراجعة كتاب عثمان سعدي: التعريب في الجزائر، كفاح شعب ضد الهيمنة الفرنكونية، دار الأمة، الجزائر 1993.
- ¹¹ - بالرغم من اختلافهما الايديولوجي فهما متفقان على الاختيار اللغوي.
- ¹² - كان يمكن كتابتها بالحروف العربية مثل الفارسية وغيرها
- ¹³ مصطفى ماضي، النخبة والمسألة اللغوية في الجزائر، دار القصة للنشر، الجزائر 2008، ص25.

-
- ¹⁴ - أحمد بن نعمان، التعريب بين المبدأ والتطبيق، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر، 1981، ص390
- ¹⁵ - Benyoucef Ben Khadda, les origines du premier novembre, 1954, Edition DAHLEB, P.170
- ¹⁶ - مصطفى ماضي، النخبة والمسألة اللغوية في الجزائر، دار القصة للنشر، الجزائر، 2008، ص53.
- ¹⁷ - Harbi Mohamed, Nationalisme algérien et identité berbère « un peuple méditerranéen » N° 1980.
- ¹⁸ - C.R. Ageron, les Algériens musulmans et la France, et P. Lucas, J. Atin, L'Algérie des anthropologies, Paris, La Couverte, P.45
- ¹⁹ - Dumas
- ²⁰ - Jules Faber
- ²¹ - (Christiane, Chaulet, Achour, Abécédaire en devenir -) ideologie coloniale et langue Française en Algérie, ENAD, Alger, 1985.
- ²² - دار الأمة، الجزائر، 2001، وانظر مصطفى ماضي، النخبة والمسألة اللغوية في الجزائر، المرجع السابق، ص91.
- ²³ - مجلة اللغة العربية التي يصدرها المجلس الأعلى للغة العربية، العدد الثاني، ص169.
- ²⁴ - أبو عبد الله غلام الله وزير الشؤون الدينية، مجلة العربية، العربية الراهن والمأمول، الجزائر 2009، ص688.
- ²⁵ - هذا تساؤل السيد وزير الشؤون الدينية والأوقاف بالجزائر، المرجع نفسه، ص690

-
- 26 - المرجع نفسه، ص 690 .
- 27 - المرجع نفسه، ص 691.
- 28 - أبو عبد الله غلام الله وزير الشؤون الدينية، مجلة "العربية الراهن والمأمول"، الجزائر 2009، ص 689
- 29 - المرجع نفسه، ص 791.
- 30 - المرجع نفسه، ص 692
- 31 - انظر اللسان العربي يستغيث، د. عمار طالبي، مجلة البصائر العدد 450.
- 32 - راجع كتاب "اللغة العربية ومكانتها بين اللغات"، د/ فرحان السليم.
- 33 - التعريب في الجزائر، المؤتمر الثاني للتعريب في الجزائر لـ 1974، وزارة التعليم الابتدائي والثانوي، ص 9.
- 34 - انظر النظام التربوي الجزائري، المركز الوطني لتوزيع الوثائق التربوية، ص 03 ط. 2002
- 35 - التفاصيل المتعلقة بتطوير هذه العمليات التدريجية في بحث تركي رابح عامرة "مكانة اللغة العربية في التعليم العام والعالي
- 36 - La Didactique des Langues
- 37 - علما بأن الوضعية الادماجية هي بمثابة القلب من الجسد بالنسبة للمقاربة بالكفاءات. فأين الإصلاح وكيف نقيم نتائجه؟؟؟
- 38 - لا يجب تقديم أسئلة سهلة في البكالوريا ثم نتباهى بالنتائج (عبد الكريم بوجناح (رئيس النقابة الوطنية لعمال التربية)
- 39 - قضية ضمان النجاح للجميع دون تمييز جعل التلاميذ يعزفون عن المذاكرة فلا يجتهدون
- 40 - إنقان العربية في التعليم، أعمال الندوة الوطنية المنعقدة يومي 4-5 محرم 1421هـ/ 09-10 أبريل 2000، الجزائر، ص 105-106

⁴¹ - المرجع السابق ص، 106

⁴² - قد ينصرف الذهن رأساً إلى السلطة، غير أنه يمكن أن تكون السلطة حسنة النية ويندس في دواليب إدارتها من يعمل - مهندساً - عكس التيار الوطني العام.

⁴³ في 1991 تمت الموافقة في الاجتماع الأخير للحزب الواحد على قانون تعميم استعمال اللغة الوطنية الذي جمده المجلس الأعلى للدولة في سنة 1992 ثم اتفق على هذا القانون ومدد إلى 5 جويلية 1998 والواقع أنه لم يطبق.

⁴⁴ - انظر الفصحى لغة القرآن، أنور الجندي، ص: 306.

المراجع العربية

- 1- الارتقاء بالعربية في وسائل الإعلام، نور الدين بليبيل. سلسلة كتاب الأمة 84/ رجب 1422هـ
- 2- أم اللغات دراسة في خصائص اللغة العربية.. مكتبة الآداب، سعيد أحمد بيومي، ط1، القاهرة، 2002 ص 102
- 3- التطور اللغوي، للدكتور رمضان عبد التواب، ط2، مكتبة الخانجي، 1990م القاهرة، مصر.
- 4- دراسات في اللغة العربية وتاريخها، محمد الخضر حسين، المكتب الإسلامي ودارالفتح، دمشق، ط2، 1960م.
- 5- دلائل الإعجاز عبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلق عليه محمود شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1984م.
- 6- حافظ إبراهيم: الديوان
- 7- حروف المعاني بين الأصالة والحداثة، حسن عباس، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2000م.
- 8- حصوننا مهددة من داخلها، د/ محمد محمد حسين ط/ 5/ 1978/ المكتب الإسلامي .

-
- 9- رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، محمود محمد شاكر، سلسلة كتاب الهلال ع/1991/9/489م
- 10- العربية، المستشرق الألماني يوهان فُك، ترجمه وقدم له رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي بمصر، 1980م.
- 11- علم الدلالة، لبيب جبر. ترجمة الدكتور منذر عيَّاش. ط1 دار طلاس 1988م. دمشق.
- 12- في التحليل اللغوي د/ خليل احمد عمايرة مكتبة المنار ط/1/ 1987م
- 13- في جمالية الكلمة، د. حسين جمعة، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2002م.
- 14- في علم اللغة العام، عبد الصبور شاهين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 3، 1980م.
- 15- في اللغة والفكر، عثمان أمين، معهد البحوث والدراسات العربية، جامعة الدول العربية، القاهرة، 1967م.
- 16- في اللهجات العربية، الدكتور إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط 5، 1973م
- 17- القياس في اللغة العربية محمد الخضر حسين ص/12، ط/2/ 1983م دار الحداثة
- 18- سيكولوجية اللغة والمرض العقلي د/ جمعة سيد يوسف ص/22 وما بعدها بتصرف (المعرفة 1990/1/145م).
- 19- الطرائق العلمية في تدريس اللغة العربية، طه حسين الدليمي، سعاد عبد الكريم دار الشرق للنشر والتوزيع، ط1، الأردن، 2003.
- 20- اللغات في القرآن، لابن حسنون. تحقيق: صلاح الدين المنجد. ط3 دار الكتاب الجديد 1987م. بيروت.
- 21- اللغة، لفندريس. تعريب: عبد الحميد الدواخلي وآخر. مكتبة الأنجلو المصرية.
- 22- اللغة بين المعيارية والوصفية، تمام حسان، دار الثقافة، الدار البيضاء 1980م.
- 23- اللغة العربية، معناها ومبناها، تمام حسان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1973.

-
- 24- اللغة العربية ومكانتها بين اللغات، د/ فرحان السليم.
- 25- اللغة والهوية، جون جوزيف، ت/ د. عبد النور خراقي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، آب، 2007م.
- 26 - المقاومة: قراءة في التاريخ والواقع والآفاق، د. حسين جمعة، اتحاد كتاب العرب، دمشق، 2007م.
- 27 - المغرب والدخيل في المعاجم العربية، جهينة نصر علي، دار طلاس، دمشق ط 1، 2001م.

• الدوريات

- 1- لغة القرآن الخالدة بين مقومات الخلود ومظاهر الجمود، مجلة الأدب الإسلامي عدد 7، السنة الثانية/ 1995م
- 2- مقدمة في تطور الفكر الغربي والحداثة د/ سفر الحوالي (البيان) العدد 198 صفر 1425هـ ابريل 2004م
- 3- مهد الإنسان العربي نظرية تحتاج إلى تأصيل د/ محمود عبد الحميد أحمد، مجلة العربي ع/472/مارس 1998م ص/115
- 4 - إتقان العربية في التعليم، أعمال الندوة الوطنية المنعقدة يومي 4-5 محرم 421هـ/09-10 أبريل 2000، الجزائر.
- 5 - أحمد بن نعمان، التعريب بين المبدأ والتطبيق، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر، 1981،
- 6 - التعريب في الجزائر، المؤتمر الثاني للتعريب في الجزائر لـ 1974، وزارة التعليم الابتدائي والثانوي،
- 7 - التركي رابح، التعليم القومي والشخصية الجزائرية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1981،
- 8 - تركي رابح عمامرة "مكانة اللغة العربية في التعليم العام والعالي والجامعي عام 1962، إلى نهاية عام 1989، مجلة اللغة العربية، ص337-354. تفاصيل متعلقة بتطوير هذه العمليات التدريجية .

-
- 9 - صالح خرفي، مدخل إلى الأدب الجزائري الحديث، مجلة الثقافة، العدد 21، السنة الرابعة، جوان/جويلية، الجزائر 1974.
- 10- مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ترجمة محمد عبد العظيم علي، الجزائر، 1391هـ/2005م،
- 11 - مجلة اللغة العربية التي يصدرها المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر 2005 ،
- 12 - مجلة اللغة العربية التي يصدرها المجلس الأعلى للغة العربية، العدد الثاني،.
- 13 - محمد الميلي، الشيخ مبارك الميلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2001.
- 14 - محمد حربي، العدد 580 جانفي، فبراير 1955
- 15 - مصطفى شريك، اللغة العربية والاستراتيجية الاستعمارية،.
- 16 - مصطفى ماضي، النخبة، المرجع السابق، دار الأمة، الجزائر، 2001،
- 17 - مصطفى ماضي، النخبة والمسألة اللغوية في الجزائر، دار القصة للنشر، الجزائر 2008،
- 18 - عثمان سعدي: التعريب في الجزائر، كفاح شعب ضد الهيمنة الفرنكوفونية، دار الأمة، الجزائر 1993.
- 19 -يسلي مقران، "موقف فرنسا من الثقافة الجزائرية أثناء الاحتلال" مجلة المبرر، مؤسسة الأيام للنشر والإشهار والتوزيع، الجزائر (د.ت)

مراجع باللغة الفرنسية.

- 1- Ben Salah « Arabisation et développement psychosociologique du phénomène d'arabisation à travers la formation sociale algérienne, thèse du 3è cycle, Paris, 1983.
- 2- Christiane Chaulet Achour abécédaire en devenir, idéologie coloniale et langue française en Algérie, ENAP, Alger, 1985.

3– El–Rassi l’arabisation et les conflits culturels dans l’Algérie indépendante, thèse du 3^e cycle, L’Ecole des Hautes Etudes en sciences sociales, Paris, 1979.

4– Gilbert Grand guillaume, langue, pouvoir et société au Maghreb, Ed. EL–Fârâbî, Maroc, 1995. Arabisation politique et linguistique au Maghreb, Paris – 1983.

– « L’arabisation au Maghreb et au Machrek » dans les relations entre le Maghreb et le Machrek.

5– Haddab M. Les intellectuels et le statut des langues en Algérie, thèse d’état, soutenue en 1993 à Paris 7.

6– Harbi Mohamed, Nationalisme algérien et identité berbère « un peuple méditerranéen » N° 1980.

7– Madi Mustapha, ouvrage collectif, l’élite arabisante et l’arabisation de la stratégie linguistique à la marginalisation par la langue, élites et société (Algérie et Égypte) coordination et 8..présentation par Largane O

9– Mazouni Abdallah culture et enseignement en Algérie, Maspero, Paris, 1969.

10– Mondialisation et enjeux linguistique, quelles langues pour le marché du travail en Algérie? CREAD ouvrage collectif sous la direction de M. Benguerna et A. Kadri, Alger, 2001.

11– La Didactique des Langues – Mondialisation et enjeux linguistique, Ouvrage collectif, C R E A D, 2001,

“La Guerre des Frères”, Algérie, ,13– Les Temps Modernes

P.30 Benyoucef Ben Khadda, les origines du premier novembre, 1954, Edition DAHLEB, P.170

-
- 12– C.R. Ageron, les Algériens musulmans et la France, et P. Lucas, J. Atin, L'Algérie des anthropologies, Paris, La Couverte, P.45
- 13– Christiane, Chaulet, Achour, Abécédaire en devenir idéologie coloniale et langue Française en Algérie, ENAD, Alger, 1985.